Gaylord
PAMPHLET BINDER
Syracuse, N. Y.
Stockton, Calif.

Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES

صمم الغلاف

الفنان هشام زمربو

هدية

وزارة الثقافة والارشاد القومي في الاقليم السوري

مديرية التأليف والترجمة

حتّى القطرة الأخيرة

تأليف

فارس زرزور

السلسلة القصصيّة

٢

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر بدمشق

~~956.9
Un27
2~~

956.9
Sy27
2

حتّى القطْرة الأخيرَة

كان هو والرشيش وحيدين متعانقين في الظلام ، كانا اسودين صامتين كأنهما قطعة من الارض التي افترشاها ، حانياً أحدهما على الآخر كتوأمين ملتصقين ، ينبض في جسدهما قلب واحد .

كانت حياة احدهما متعلقة بالآخر ، لايمكن لأحـدهما أن يعيش دون رفيقه بأي حال من الاحوال . ولعـل في وجود السر الذي يجمعهما يكمن السبب الحقيقي لــكل ذلك ، إذ على حياتيهما مجتمعين تتوقف ارواح احد عشر جندياً وضابط . . .

كانت الحفرة التي يفترشانها تقع على سفح مرتفع بسيط من الأرض تخفيهما عن الانظار وتقيهما من نيران العدو التي قـد تأتي بخط مستقيم ، وهذه الحفرة تطل على سهل منبسط الى اليمين ، وتشرف على واد ضيق في الوسط ، يحده من اليسار مرتفع آخر مناظر للمرتفع الذي انبسطت الحفرة على سفحه .

كان الرامي منـذ ساعتين انقضتا يسلي نفسه بترتيب وضع

مريح يسهل له المهمة التي عهد اليه بتنفيذها ويكفل له قضاء ليلة سعيدة يناجي فيها النجوم قبل ان يبدأ حديث النار .

وعندما انتهى من تهيئة الوضع ومهد لجسده طولاً وعمقاً كافيين وضع امتعته الى جانبه ، وثبت ركيزة الرشيش في مكانها حسب قياس معين ثم تنفس الصعداء .

واستلقى الى جانب سلاحه واضعاً يديه تحت رأسه كوسادة ووجهه شطر السماء .. ومالبث في هذا الوضع بضع دقائق حتى أحس بأنه على وشك الضياع ، فقد الفى نفسه شيئاً فشيئاً دون ان يشعر قد اصبح في السماء نجماً متألقاً وسط النجوم .

وكاد يغمض عينيه على هذه الحقيقة . . على هذا الحلم اللذيذ .. كاد يستسلم لاغفاءة طويلة الامد ، لولا أن أحس بهاتف يصرخ فيه من قرارة نفسه : حسين أين أنت ..؟ لماذا جئت ؟ وماذا تفعل ؟..

وغيّر حينئذ من وضع استلقائه فأخذ وضع الرامي منبطحاً ، وراح يخترق ظلمة الليل . . لم يكن يرى شيئاً الى أبعد من خطوتين .. كان الظلام دامساً أسود .. ومع ذلك راح ينظر ويجهد نفسه في النظر . لاشيء . . كل شيء أسود . . لايهمه ذلك ، انه يعرف الهدف ، وقد وضع السلاح باتجاهه ،

وما عليه فقط إلا أن يضغط الزناد ويلقم الرشيش ذخيرته مخزناً وراء مخزن .. هذا كل مايراد منه .

وعلى كل حال انه يعرف هدفه ، لقد درسه دراسة تامة ، ورآه بعينه ، وقاس بعده وارتفاعه ، وتعرف على حدوده من اليمين والشمال والأمام والخلف ، ان هذا لايهم ، عليه فقط ، عند بدء الاشارة ، ان يضغط على الزناد ..

وراح يقدر الوقت بذهنه ، اذا كانت الامور تسير سيراً حسناً فسيبدأ مهمته بعد ربع ساعة أو عشرين دقيقة على أبعد تقدير .هاقد مضت عليه ساعتان وحيداً ، وساعتان كافيتان لأن يصلوا الى الهدف ، وربع ساعة للقيام بالمهمة ، إذن بعد ربع ساعة سينتهي كل شيء ، وأصاخ السمع.. كان الطقس لطيفاً في ذلك اليوم من أيام مايو ، وفي النسيم الدافيء يحلو للحشرات والزواحف ان تتنزه على طبيعتها ، وللطيور السوداء ان تصدر بين آونة وأخرى صوتاً أو صوتين لتتعارف أو لتنشد نشيد السعادة ، ولكن هل هذا ممكن ..! واصاخ السمع بكل جوارحه .. ان حركة تصدر من الوادي الى جانبه .. ولكن .. هـــل رجعوا ؟ كيف ؟ كيف يرجعون دون أن تنتهي المهمة ..؟ هل هم الذين يرجعون ؟ لاشك في ذلك ... انها أصوات اقدام . . . اقدام حقيقية تصطدم بالاحجار .. انها ليست أصوات زواحف أو طيور .. لا .. انها اصوات آدمية تصدر منها دمدمة مكبوتة . . وتمنى لو يصير جميعه أذناً كبيرة .. أذناً فقط ، ليفهم شيئاً مما

يدمدم به العائدون ، وكاد يصرخ فيهم : من هناك ؟ ولكن . . كيف يصرخ ؟ ربما يسمع الاعداء فتفشل الخطة . . ووضع يده على الزناد .. هل أطلق النار ؟ وعلى من أطلق ؟ لست أدري .. ان هذه طريق عودتهم . ولكن ليس الآن . . انها طريق العودة عندما ينتهون من المهمة .. والمهمة لم تنته بعد . . كيف حدث ذلك ؟.. هاهم .. انهم يقتربون اكثر .. لقد اصبحوا على بعد خمسين متراً .. ان أشباحهم تتراءى له في الظلال .. انهم آدميون.

وحبس انفاسه .. وتقلص على نفسه ، وأصبح كتلة من عصب ، ووجد اصبعه من تلقائها تشد نفسها الى الخلف والزناد يتراجع شيئاً فشيئاً ، فتمالك نفسه وأرجع أصبعه الى الامام ..

هل أبدلوا المهمة ؟ هل أسروا قبضة من الاعداء واكتفوا بهذا الانتصار ؟ لايمكن .. ان المهمة الاساسية غير هذه ، ولايمكن ابدالها مهما كانت الظروف .. اذاً ؟.

وترامى الى سمعه صوت .. ان هذا ليس كلاماً عربياً . . لاشك انها دورية يهودية .. ولكن ماذا أتى بها في هذه الساعة ؟ هل يطلق النار ؟ ستفشل الخطة .. وليس معه ـ فضلاً عن ذلك ـ امر باطلاق النار في مثل هذه الحالات .. ان المهمة الاساسية هي في مقدمة كل شيء .

واقترب اليهود .. اقتربوا بصورة لم يبق معها مجال للتفكير ، لقد اصبحوا الى جانبه تماماً .. خطوتين فقط ، ويضحون فوق رأسه .. ترى هل يوجد معهم أحد من الاصدقاء ، هل هم أسرى ؟ لا .. انهم يسيرون ملء حريتهم اذن .. هه ..

ولمع حذاء قرب رأسه ، وسمع صرخة هائلة تبعها طلق ناري.. ثم .. ثم صمت كل شيء ..

عندما أفاق الرامي من دهشته ايقن تماماً على نحو لا يقبل الشك أو الجدل ان اليهود قد ولوا هاربين وذلك لسبب بسيط جداً ، فقد ظنوا أنفسهم قد وقعوا في كمين كبير ، اذ لم يعد يسمع او يرى لهم أي أثر ..

ولكن ماهذا الذي . . آه .. حقاً ، هل ممكن ؟ وتحسس ساعده ، كان هناك شيء حار يسيل من ساعده ويتدفق كالينبوع من أطراف أصابعه اليسرى . . لاشك انني جرحت . ان ذلك الصوت الثاقب الذي تبع صرخة الرعب لم يكن غير رصاصة استقرت في ساعدي ، وعلى هذا فأنا الآن جريح ،لا بأس . .

وعندما هدأت أعصابه ، أحس بصورة واضحة بأن هذا السائل الحار الذي يتدفق من بين أصابعه لم يكن غير الدم . . وهو على كل حال بدأ يشعر بوخزة مؤلمة في مكان انبثاقه ..نعم .. لقد استقرت

الرصاصة في ساعده ، فتح جعبته الامامية في هدوء واخرج منها الضماد . . وفكر : هل أنزع ملابسي أم أضمد فوقها ؟ وقدّر الزمن اللازم لذلك وهز رأسه .. لقد انتهى الوقت ، علي أن أتأهب لفتح النار ..

واستطاع بطريقة ما أن يربط ساعده من أعلى الجرح وفقاً للتعليمات الاولية التي يتلقاها كل جندي ليمنع تسرب الدم من القلب الى الخارج ، وجفف يده بالضماد واتخذ وضعاً يستريح فيه بعض الشيء .. ليس هناك اقسى من أن يعد الانسان الزمن ،ثانية وراء ثانية ، خاصة اذا كان هذا الانسان ينتظر في كل ثانية أن يحدث انفجار مدمر يهز الارض والسماء ، ويطيح بآلاف الصناديق من الذخيرة والقنابل والعتاد،ثم يبدأ بعدها فتح النار ، ليحمي رفاقه الجنود الذين قاموا بعملية التفجير ..

ورامي الرشيش الجندي الأول حسين هايل العلي الذي جرح في ساعده ، والدم راح يتدفق من يده .. ينتظر هذه اللحظة . انه الجندي الذي كلف بحماية رفاقه اثناء الانسحاب من اغارتهم على مستودع ذخيرة العدو ، عليه عند سماع صوت الانفجار ان يفتح النار على بناء مجاور لمستودع الذخيرة يكون مهجعاً للحرس ، « بناء أبيض له نافذتان » ، انه ينتظر هـــذه اللحظة ويتنظّرها بدقات قلبه وهيجان اعصابه . ان تعبير (بدقات قلبه) ينطبق

على الحقيقة تماماً لأن قلبه بدأ يعمل بشكل سريع لسببين : لحساب الزمن ، ولشيء آخر صار اكثر منه اهمية ، هو خلق دم جديد.

ومضت دقيقة .. فدقيقتان .. فعشر .. فعشرون .. فساعة .. تعب فيها القلب وكاد يكف عن الخفقان كان الرامي خلال الدقيقة الاولى لايفكر في شيء على الاطـــلاق .. صوت انفجار .. ثم الضغط على الزناد .. غير أنه بدأ بعد مضي ذلك الزمن الطويل يبدل تفكيره .. بدأ يهتم بساعده ، خاصة وان ألماً حاداً عميقاً بدأ يمزق جسده .. وكاد يصرخ من الذعر عندما تحسس كم معطفه فوجده يقطر دماً مما اضطره الى عصره بيده السليمة ليخفف وزنه قليلاً ، فلايسبب ثقلاً اكثر على ساعده .

وأيقن بعد قليل أنه لم يعد يستطيع الاستفادة من ساعده الايسر بأي حال من الاحوال .. واعقب هذا اليقين شعور بأن كل شيء قد فات . . ودغدغت احاسيسه اشياء سموها . . الفراغ والراحة والنوم الابدي ..

أحس بهذه الرغبة بصورة اكيدة ، فراحت تلح عليه : نم .. نم .. واسترح .. وأحس شيئاً فشيئاً بأن قواه تتلاشى وتسحب منه كما تسحب الشعرة من العجين .. وراحت عينـــاه تذبلان ، وتوحيان اليه بأنه اذا ضم جفنيه ودانى مابينهما ملك سعادة ابدية .. سعادة لايمكن ان يحصل عليها مادام على قيد الحياة ..

سعادة ، لايمكن ان توصف او ان تعرف . . سعادة فوق سعادة البشر ..

وفعلاً راح الخدر يتمشى في اوصاله ، ويزحف وئيداً وئيداً مع الدم الذي ينبثق من قلبه ليداعب الشعيرات الضئيلات التي تكسو جلد صدره وظهره .

وتمثلت له الحياة الغالية طفلاً صغيراً اسمه النوم تهزه أمه هزاً رفيقاً وهو يطبق جفنيه بهدوء وهناء .. واوحى له الليل بأن مابينه وبين مايتمنى ، من عظمة وقداسة وسمو وكل ما انفعل وثار وأحب وكره بسببه ، وكل ما عاش حياته كلهـــا من أجله .. يتمثل جميعه بين حيزين بسيطين .. يتمثل جميعه بين جفنيه . . النوم .. يالهذه البهجة ! يالهذه السعادة ! يالهذا الخلود !. نعم ، في النوم الخلود .

وصحا فجأة .. لم يدرك كم مضى من الليل ، وتطلع الى السماء فوجـــد النجوم تتغامز ، وأحس مرة ثانية بأنه يشارك النجوم السهاد . . النجوم .. هذه المخلوقات الضئيلة في السماء ، انها تشتهي النوم .. لقد نقصت قليلاً عن ذي قبل ، لاشك انها ذهبت لتنام .ولاك لسانه في فمه ، فوجده يابساً كالحطبة ، ومد يده الى مطرته فوجدها فارغة . . وكاد يلعن نفسه لولا انه تذكر انه شربها على دفعتين بعـد اصابته بالجرح . . وامتدت يده الى

الحقيبتين الى جواره ، وحاول أن يرفع احداهما فسقطت . . حسناً واليد الاخرى اصبحت عاطلة ، ولكن يجب أن أحمل المخازن الى الرشيش .

وتحسس السلاح .. كان بارداً كالثلج .. صامتاً .. أسود .. أخرس لاينطق .. لابأس .. ووصلت يده الى المخزن المملوء بالخرطوش فوق فتحة الرشيش .. كان ثابتاً جاهزاً ..

ماهذا الطنين ؟ . . واصاخ السمع . . انه صادر من رأسه ولاشك .. طنين متواصـــل : وش .. وش . . وأحس بقواه المجهدة ـ بكل مابقي له من قوى ـ أحس بالرعب ، ماذا لو حدث الانفجار ولم اسمعه ؟ هل يمكن ؟ تُرى أتكون المهمة قد انتهت ؟ وماذا حدث للملازم ورفاقي الاحد عشر جندياً بينهم سليمان وخالد وخضر ومحمود وحسان و ..؟

وأحس بيد ساخنة تهدهد ظهره .. نم .. نم .. ايها الطفل الصغير .. ورأى الملازم يقلده وساماً حربياً كبيراً بينما أمـــه تبكي من الفرح وأخته الصغيرة تغني أغنية حزينة ووجها مطـلي بطلاء اصفر .. كل شيء اصفر .. حتى الوسام كان اصفر . . والملازم يرتدي بزة صفراء .. ثم رأى نفسه يأكل بطيخة صفراء ، مُرَّة وحامضة ، أحس بعدها بالغثيان ، فأراد ان يتقيأهـا فلم يستطع . وأحس بالألم .. وراحت امعاؤه تتفتت ، قطعة إثر قطعة ،

فسفحت أمه على بدنه العاري سطل ماء ساخن ، ساخن جداً .. ووقع السطل فوق رأسه فأحدث ... أحدث انفجاراً اهتزت له الارض ، وتصاعدت ألسنة عالية من اللهب تبعها انفجار ..وانفجار..

وفتح عينيه .. كانت اصبعه تضغط ، على الزناد ومن فوهة الرشيش ينطلق انبوب طويل من النـار يصل الى بنـاء أبيض ، ويخترق نافذتين كبيرتين الى جانب ألسنة اللهب التي تغزوالسماء .

وفي الساعة الثالثة من صباح السادس عشر من أيار سنة١٩٤٨ تلقى آمر احد افواج الحدود البرقية التالية :

نفذت المهمة : . . . الخسائر شهيد واحد .. (الجندي الاول حسين هايل العلي)

ملاحظة : (أطلب له وساماً)

★ ★ ★

حفنة من تراب

عندما كان « محمد الجابه » يغوص في مقعده وسط الطائرة الكبيرة ، راودته لأول مرة في حياته فكرة الوطن .

مامعنى هذه الكلمة ؟ ولماذا ينشدها الناس ؟ بل لماذا يموتون في سبيل هذا الشيء الذي يسمونه الوطن ؟ وتساءل لأول مرة في حياته ، أين هو وطنـــه ؟ أهو هنـاك في فلسطين حيث تتثاءب أمه العجوز ، وتفني حياتها في الصلاة وخدمـــة الناس والثرثرة مع هذه وتلك ؟ أم هنا حيث استطاع أن يجمع آلاف الليرات الانكليزية أم حصان ! وحيث تمكن من أن يملك بيتـاً ويفتح متجراً ويصاحب مئات الفتيـات الرشيقات الجميلات ؟ فأية صلة عادت تربطه بتلك الارض التي يسمونها مسقط رأسه وليس له هناك شيء من الاشياء . لا من أرض ولا من بيت ولا حتى من مسمار جحا . بل ربما لم يكن قـد ولد حتى في أرض من الاراضي . وقد تذكر فعلاً أن أمه كانت تقول إنه سقط منها منها بسهولة فائقة ، عندما كان يعذبها أحد الجنود الانكليز أثناء

بحثهم عن أبيه الذي كانوا يسمونه الشقي المارق الخـــارج على القانون . وانـه لايدري بالضبط أسقط في معسكر انكليزي ، أم في أحد قوارب الصيد في الطريق الى المنفى . وهو عنـدما يتذكر طفولته وصباه لايشعر بأية ذكرى حسنة نحو أحد من الناس أو نحو قطعة من الارض أو شجرة أو ساقية أو نحو أي شيء . حتى أن أباه الذي يحتفظ له بصورة باهتة لم تكن ذكراه بالنسبة اليه غالية جداً ان لم تكن لاقيمة لها على الاطلاق .

وهو على أي حال لم يكن يعرف عن أبيه سوى أنه أحد الفلاحين أو الأجراء الذين لايملكون غير كد اليمين وعرق الجبين ، وانه كان يكلفه ثمن الحذاء الفلاحي أو طاقية القطن مايزيد عن وزنها دموعاً . وعندما مات لم يبك عليه كثيراً بل ربما لم يشعر بشيء من الحزن عليه . فلقـد مات ابوه والسلام . وكل ما كان قد جمعه خلال حياته القصيرة أخذه معه . واذا أراد أن يتحرى الصدق والحقيقة في هذه القضية فيجب ان يقول انه مات مديناً .. بطفله وزوجته وثمن الكفن .

أما أمه — وهذا هو السبب الوحيد الذي جعله يحرك دماغه بعض الوقت — فيمكن نقلها كأي متـــاع آخر غير ملتصق بالارض . ومسبحتها تعلقها برقبتها وتريحها من عناء كبير ، وأرض الله واسعة وفي ميسورها أن تصلي في أي مكان .

واذا كان مفهوم الوطن ، هو المكان الذي يعيش فيه الانسان عزيزاً حراً وسيد نفسه ، فهنا في « البرازيل » خير مكان . هنا ينادونه الناس « سنيور جاجـه » ويحس في قرارة نفسه أنه « سنيور » حقاً وفعلاً . انه ليس « جاجة » فقـط بل ديك رومي ضخم يشق بمنقاره الحديد . وله هنا بيت كبير بل « فيللا » فخمة، وبستان كجنان السموات ، ومتجر ضخم يلعب في خزائنه الذهب كما يلعب الفأر في حواكير قريتـه . وهو اذا مادعي يوماً للدفاع عن شيء من الأشياء ، فلن يكون دفاعه عن غير بيته ومتجره ومكان سعادته .

ولقد مضى عليه هنا ما ينوف عن عشرين سنة ، تعلم خلالهـا اللغة « السبنيولية » قراءة وكتابة وكلاماً في حين أنه خرج من قريته أمياً أعجم كالحمار .

وهو اذا ما أراد أن يفتش هناك عن الاهل والاصحـــاب والأحباب ، فلن يجد شيئاً من كل هذا ، حتى مرتع الصبا الذي يتغنى به الشعراء مفقود أيضاً . لقد كان هناك صبياً حقاً ، غير أنه لم يكن يرتع كما يرتع الراتعون . فقد بدأ يعمل أجيراً منذ أن حمل نفسه ، فلا اصحاب ولا احباب حتى ولا من يحس بوجوده على الاطلاق .

واذا كانت أمه هناك قد استسلمت الى حياة الركود والطمأنينة

والسلام في ظلال خدمة الناس والعيش على فتات موائدهم حتى مات فيها كل شعور بالكرامة الانسانية اذا كانت أمه هناك قد اعتادت على كل ذلك ،فليس أسهل من أن يعاد إليها رشدها ، وتكفر شيئاً فشيئاً بحياة العبيد ، وأن تؤمن بأنها انسانة لها حق العيش والحياة .

وعاد « السنيور » الى رشده دفعة واحدة ، ونظر في ساعته، وتنهد كمقامر خاسر . لقد أضاع نصف ساعة في جنون فارغ . سيقفز الى هناك من الطائرة ، فيضع على قبر أبيه (جرزة) آس، ويجلب أمه معه وينتهي كل شيء .

وراحت الطائرة الكبيرة تحلق بين الغيوم يملأ هديرها الفضاء، وربما الأرض أيضاً ، ثم تهوي دفعة واحدة لتستقر على طبقة جديدة من الهواء كأنما هي سفينة تتلاطمها أمواج غير منظورة .

وعلى المقاعد المصفوفة يستلقي أناس ، قبعاتهم فوق وجوههم وأيديهم على صدورهم ، ينامون أو يتناومون .

وبين لحظة وأخرى تنزلق في الوسط مضيفة ، رشيقة تبدو من الخلف كبنت مدرسة ومن الامام كجد ضئيل عجوز ، طلي وجهه للتسلية . وخلال ذلك أخذ السنيور محمد يطل على الارض أو البحر ويفكر . ست وثلاثون ساعة ذهاباً وأخرى إيابا ويومان احتياط . لن يتأخر على أي حال . ان المتجر سيفوته كثير من الارباح . لعن الله اليهود . وهذه القضية كم هم مزعجون ! كان لولاهم خالي البال ، لايفكر في أشياء عميقة ولا سفر ولا مايحزنون.

ألم يجدوا في غير فلسطين أرضاً يسكنونها ؟ لقد قرأ اخيراً في بعض الجرائد الامريكية : « ان اليهود لا يكفيهم النصف بل انهم بحاجة لأن يقتطعوا أقساماً أخرى ، وان العرب أيضاً لم يرضوا بالتقسيم ، فراحوا يحتجون ويصرخون . يالله ! ما هـــذه المشاكل المعقدة التي تتعب الفكر وتقلق البال ؟ ولم يشأ أن يزعـج نفسه اكثر من ذلك ، فاستلقى في مقعده واستسلم لرقاد عميق.

ووجد القرية هي نفسها : بضعة أكواخ طينية متفرقة متطامنة ، وفي وسطها بيت ابيض ، يعلو نسبياً عمـــا حوله . التراب نفسه والقش نفسه ، والساكنون أنفسهم . رجال ونساء وأطفال وكلاب ، كلهم يسيرون بكلل أو يستلقون تحت أشعـة الشمس . لا شيء جديد ، هاهي عشر سنوات مضت في الخارج . بيد أنهم هنـــا لا يحسون بمرور الزمن . سنة ، سنتان ، قرون ، كل شيء هادىء ، الشمس تشرق وتغرب ، والمطر يهطل أو يتوقف ، والكلاب تعوي وأطفال يولدون ويعمون ويموتون .. خرج الانكليز وجاء اليهود ، والخراب هو الخراب.

وسأل رجلاً صادفه : أين تسكن أم محمد الجاجه ؟.. لماذا لا يتكلم هؤلاء النـــاس ؟ أي نكبة سحقتهم .. لماذا ينظرون إلي هكذا؟ علهم يظنونني يهوديا ؟ يجب ان أظهر هويتي . انهم لا يجيبون بل لا يكادون يرونني !.. ونزع قبعته .

أين تسكن أم محمد الجاجه ؟ .. وينظر إليه الصبي ببلاهة ولا يجيب . يبدو أنه لايتكلم العربية بصورة سليمة ؟ وراجع سؤاله بينه وبين نفسه .. أين ؟ صحيح انني لا أخطىء . يجب أن أسأل رجلا .. ها هو ذا .. انه يحمل بندقية وقد طرز صدره بالرصاص.

- مرحباً ياشب

- مرحبا

- أنا محمد الجاجة

- أهلا

- ألا تعرفني ؟

- بلا صغرة

- ان أمي تسكن هنا .. أم محمد زوجة ابي محمد .. و ..

- ماذا تريد ؟

- جئت من البرازيل لآخذها ..

وجلس المجاهد على الارض ووضع بندقيته في حجره وراح ينظف فوهتها بخرقة بالية .

وأجاب بعد تردد قصير:

- انني لست من هذه القرية .. هل تريد أحداً ؟

وتجمهر حول السنيور بعض الاطفال العراة ، وراحوا يرفعون رؤوسهم الى أعلى ، ويغمضون اجفانهم المتورمة ،وتجرأ احدهم فتلمس بنطال الرجل فنهرهم .

ـ كش يا أولاد العمى ..

ولم يجد السنيور محمد بداً من أن يتخذ طريقه الى البيت الكبير .. ودخل المضافة .. هنا يصطف رجال مسلحون حتى ذقونهم . ويبدون ثقالاً كالمدرعات . يظهر ان القرية بحالة حرب.

ـ السلام عليكم .

كانوا يتناقشون :

ـ انا وسعيد وصالح على رأس التل وحسين والباقي في الوادي، هنا كمين جيد . سنحيط القرية من الجانبين .. نعم .. احسن طريقة .

وتقدم من السنيور كهل تلتمع في عينيه شرارات حمراء .

ـ أهلا وسهلا .

ـ هل استطيع ان أجد والدتي ؟ أنا ابن ام محمد ..

ـ ها . حضرتك محمد .. تفضل .

وتلاشى الرجل روحاً وجسداً كأنما سحقته قاطرة مسرعة عندما علم بالخبر.

لقد ماتت أمه منذ ثلاثة اشهر . وفكر :

ليس لي هنا أحد . أنا غريب .. غريب جداً حتى على نفسي . يجب ان ارجع .. ارجع في الحال.. ان القرية في حال حرب وهي مهددة في كل لحظة بهجوم اليهود .. ماهذه المفاجأة .. امي ميتة والقرية مهددة، وبدأ يحرك دماغه من جديد كما لم يحركه في يوم من الايام .. سيحاول اليهود الهجوم على القرية فاذا عجز رجالها عن صد العدوان .. في هذه الحال لن يخسر شيئاً مادياً ، فاذا فكر

في نفسه فهو برازيلي ، ليست لهأي صلة بهذه القرية ، وسيجد طريقة .. أي طريقة للخلاص . اما أمه التي جاء لينقلها الى هناك فهي الآن جثة باردة تحت التراب .

أمه جثة ميتة لايمكن نقلها .. سيتركها هنا . . حسناً . . وينصرف وحده .. لاشيء .. من هو ؟.. وتحرك شيء في اعماقه، شيء ثقيل جداً كالحوت النائم في قاع البحار . وبدأ هـذا الشيء يزحف ويتململ ويحرك زعانفه . لقد افاق . أحس بالجوع والظمأ فقد نام طويلا إثر سكرة من سكرات المـال والعمل . أمه في التراب ، تسكن في الارض وفوقها أحجار وطين وشاهدة بيضاء . وربما أبوه أيضاً . ابوه الذي لم يفكر فيه كما فكر في أمه ، ربما ينام الى جانبها ايضاً . هنا في هذه الارض يسكن ابوه وأمـــه . وشاء ان ينفض عن رأسه هذه الافكار المقلقـة ، ان يضرب الحوت على أم رأسه . ماذا يفعل ؟ هل يترك كل شيء وينسى كل شيء إلا نفسه ؟ نفسه . نفسه . ولكن هذه النفس ألا يجب ان تمتلىء بشيء ؟.. ان تختزن ذكرى من الذكريات ، عاطفة من العواطف .. أشياء تسليه ، تسعده ، أو تعذبه ، اشياء تشعره بأنه انسان . وأحس لأول مرة في حيـــاته بأن نفسه عارية .. عارية على الاطلاق ، فارغة قاحلة جوفاء ، لا يملؤها شيء . المال ، الذهب ، الحياة المترفة ، ماذا فعلت هذه الاشياء ؟ لقـد

اسكرت الحوت ، جعلته ينام نومة طويلة . ترى هل هذا هو الوطن ؟ هذا الحب هل هو حب الوطن حب الارض وحب التراب ؟

واذا داس الاعداء قبريهما بأحذيتهم ودكوا معالمها ، فماذا يحدث ؟ هل يعتبر أن الأمر قد انتهى وان لاشيء يصله بأي كائن من الكائنات ؟ وبعد عشر سنين أو عشرين سنة أو أقل أو أكثر ، اذا أراد أن يفكر في لحظة من لحظات فراغه بأمه وأبيه ، بقبريهما فماذا يحدث ؟ ماذا يكون لو مد يده الى قرارة نفسه فلم يجد شيئاً يقبض عليه ؟ وأحس بدوار هائل كأنما سقط من الطائرة . شيء مخيف .. الذكريات .. انها أثمن مما كان يعتقد ، أثمن من الذهب . وحاول أن يذكر أعز شيء لديه ، متجراً ، « فيللا » ، فتاة رائعة ، ذهباً انكليزيا ، مئات الزبائن ، حفلات رقص وغناء .. موسيقى .. وأغمض عينيه . انه لايستطيع أن يمسك شيئاً . ليس هناك غير الفراغ البشع الرهيب .

ونهض المغترب وراح يجوس خلال المقابر . وبمساعدة بعض المجاهدين العرب عثر على قبرين متجاورين : الأب والأم . وجلس الرجل بين ابويه وطوق رأسه بساعديه ، وراح يتحسس مشاعره بهدوء . وقال للدليل :

— أخي .. هل يتوقع هجوم اليهود ؟

— ربما .. غير أن هنا رجالا يدافعون عن كل ذرة من هذه القرية .

— هل استطيع أن أعثر على بندقيـة . سأنام هنا ، هذه الليلة لأدافع عن أهلي .

— بكل سرور أيها الأخ .. خذ بندقيتي وخراطيشي .. ان عندي مسدسين ، وقنابل يدوية . ونحن بحاجة الى أعوان على كل حال . ابق حيث أنت وأطلق النار عندما تشاهد أحـداً . سنكون نحن في الجهة الاخرى على احتراس .

وخيم الظلام ، وطرزت صفحـــة السماء نجوم ناعمة بيضاء ونقت الضفادع في مستنقع قريب . وحركت الانسـام رؤوس الاشجار . وراحت من جوانب القرية تسمع أصوات رجال وقعقعة سلاح . ووقع أقدام رائحة غادية . لابأس . ان المكان ليس موحشاً الى حد بعيد .

وراح الرجـــل بين أبويه ، بين قبريهما ، يستنبت مشاعره ويدغدغها وينميها . إن ذلك شيء جديد بالنسبة إليه . هذا بيت أبوي ، هنا يسكنان ، هنا وطنهما في هذه الأرض . ومد يده الى القبر : تراب .. تراب خشن . وغرس أصابعـه في القبر فلذعته شوكة حادة . واستخرج قبضة من التراب وراح يعصرها عصراً شديداً حتى دميت أنامله ، هل لهـــذا التراب رائحة ؟ وغرس أنفه في قبضة التراب . ليست له رائحة معينة ، غير أن

فيه حياة .. حياة أناس ماتوا ، أعزاء عليه . حياة غريبة ، لا تشبه أي حياة من الحيوات . غير أنها حياة ، كحياة الانسان . لقد بدأ يشعر بها ويحسها بل يعيشها بأعمق جوارح كيانه كله .

يجب أن يستعمل السلاح . وأرجع مغلاق البندقية ، وراح يتفحصه . إنها ممتلئة ، تبتسم ابتسامة صفراء . يكفي أن يضغط الزناد لينطلق الرصاص الاصفر . إنه لم يحارب في حياته ، غير أنه الآن مكلف بالذود عن شيء . سيدافع عن قبري والديه .. عن الارض التي تضمهما . عن الأرض التي عاش فيها أبواه وسيعيش هو نفسه عليها .

ورفع عينيه ونظر حوله . هل أصابه دوار ؟ إن القبور تتحرك . يبدو أنها تتقدم أو تتأخر ! وهذه الشواهد ، إنها تبرز شيئاً فشيئاً . كأنما هي جنود ينبتون من الخنادق استعداداً للهجوم . وأصاخ السمع .. ما هذا الدوي الهائل ؟.

لا بأس ، سيضغط الزناد عند أول حركة . وبعد فليحدث مايحدث . لن يدع أحداً يقترب على أية حال . إن عنده جناداً مملوءاً وانه ليعرف كيف يضغط الزناد .

هاهي الضفادع تثرثر بصخب . أي سعادة تمرح بينها ؟ هل تحس هذه الحيوانات بعاطفة من العواطف ، عاطفة الوطن مثلاً ؟. ماذا يكون شعورها لو أخرجت من مستنقعها وألقيت في صحراء من الصحارى أو في قفر من القفار ؟ . وهذه الأشجار السامقة انها

تهز رؤوسها بنشوة ، فهي تنشب أظفارهـا في الارض ... في أرضها ولن تقوى حتى فؤوس الحطابين على تحطيمها .. لن يؤثر فيها الرصاص أو شظايا القنابل . لقد تذكر أنه كسر ذات يوم غصناً من أغصان الكرمة فراحت تبكي بدموع غزيرة كدمعة الانسان .

والتفت فجأة الى الخلف . من هذا الذي ينظر إليه بهـاتين العينين الحادتين البراقتين دون ارتعاشة جفن ؟ وحبس الرجل أنفاسه بل توقف نبضه وأحس شيئاً فشيئاً أن شعر رأسه ينتصب. ونسي أن يضغط على الزناد ، بل نسي نفسه .

..م .. من هذا ؟..

وارتفعت العينان البراقتان وسمع تصفيق جنـــاحين كقهقهة ساخرة شامتة . يالله .. كاد يموت . لو كان هـذا عدواً لخسر كل شيء . يجب أن يتعلم رباطة الجأش ... يجب أن يكون شجاعاً كهؤلاء الناس الذين مر بهم ... لقد بدوا له لأول وهلة انهم فلاحون عاديون لا يعرفون غير زراعـة الأرض ، والنوم في الشمس .

غير أنه لمس ، حين تفحص عيونهم ، أشياء مخيفة . هل هي قوة العزيمة ؟ أم الايمان بشيء أخطر من الموت ؟ إن في عيونهم نيراناً أشد مضاء من أسلحتهم . فهم يحملون أدوات الموت كما يحملون فؤوس القطع ومحاريث الفلاحة . لابد أن لكل منهـــم

شيئاً يدافع عنه .. أرضاً ، بيتاً ، شجرة ، قبراً . . . أو ذكرى من الذكريات .

وعاد من جديد الى قبريه ، وتحسسهما بيديه ، وعانقهما . هنا يسكن أبواه . هذا ما تبقى لهما بعد طول الكدح والسنين . غير أنه شيء . . ثمين على كل حال . لعلهما يحادثانه الآن وينظران إليه ، دون أن يفهم أو يعي ما يقولان . وتذكر أنه سمع يوماً أن الأموات يتكلمون وينظرون كما لاينظر الحي ويتكلم . وانقضت ساعة تلتها ساعات طويلة . النجوم في السماء تتغامز بنشوة . والقبور تتحرك ببطء ثم تقف ، والشواهد تنبت شيئاً فشيئاً . والضفادع يزداد ضجيجها والاشجار تخشخش أوراقها . ومن بعيد همهمة رجال غامضة . وكل شيء هادىء .

★ ★ ★

وفي مساء اليوم التالي تلقى متجر المغترب محمد الحاجة في في البرازيل هذه البرقية :

« بيعوا كل شيء وأرسلوا المال الى العنوان التالي : تل الزيوان ، يافا ، فلسطين » .

يا أبنائي

اصطف ماتبقى من الفئة بين البراكتين المهجورتين . كان الجو غائماً بعض الشيء والأرض مشبعة بالرطوبة ، والحرارة خانقة رغم أن الساعة لم تتجاوز الخامسة صباحاً . وقد يعجب الانسان لصفات الجو المتناقضة هذه ، غير أن عجبه يزول عندما يعرف أن المكان ينخفض عن سطح البحر مائة وعشرات أخرى من الأمتار أو بصورة أقرب ، يقع خلف تل مرتفع اسمه ناقص ٩٨ ، وبالتحديد يقع المكان في حدود فلسطين .

وقد عاد أفراد ماتبقى من الفئة الأولى ـ وهي إحدى فئات بعض سرايا الاسناد ـ من الخطوط الأمامية فجر اليوم ليحصلوا على قسط من الراحة بعد معركة دامت عدة أيام لم يذق أفرادها طعم النوم خلالها .

وكان المكان الآنف الذكر يبعد عن الخطوط الأمامية عدة كيلو مترات قطعوها سيراً على الاقدام ، لتعذر سير الآليات في الليل مما جعلهم ينتظرون اللحظة المناسبة ليتساقطوا على الأرض

اعياء ويستغرقوا في نوم عميق .. النوم ، ذلك الأمل الذي كان في الآونة الأخيرة ـ بالنسبة اليهم ـ جزءاً من أحلام اليقظة وفي الحقيقة كانوا يحلمون بالنصر لكي يناموا ولا شيء غير ذلك ، لأن الطعام كان متوفراً بشكل لم يكن بالحسبان .

كانوا أحد عشر جندياً ورقيباً أول وعريفين و .. آمر الفئة أيضاً . وهذا الاخير وهو ضابط برتبة ملازم ثان ـ بشر بالترفيع الى رتبة أعلى منذ يومين ـ كان يجب ان لا يكون معهم ، منذ ظهر أمس ، غير أنه رفض أن يسبقهم على نقالة أسوة ببقية الجرحى ، كما رفض أن يعتلي أحد بغال الذخيرة ، بل أصر على أن يرافق من تبقى من فئته حتى يصل الى مكان الراحة مضحياً بكل شيء .. بدمه الذي ينزف من قدمه الجريحة ..

وكان الملازم قد أصيب بشظية قنبلة يدوية سقطت في خندقه ظهر الامس واخترقت فخذه اليمنى عندما حاول اليهود القيام بهجوم معاكس لاسترداد مركز البوليس في مدخل صمخ ولولا هذه القنبلة لرجع أفراد الفئة أكثر عدداً بعض الشيء بزيادة واحد أو اثنين على الأكثر ، استشهد أحدهم وأصيب الثاني اصابة خطيرة ..

وبما أن الملازم آمر الفئة كان يعلم أن فئته ستعود للاستراحة بعد منتصف الليل ، فقد آثر البقاء حتى يعود معها الى الخطوط

الخلفية ليستمتع أفرادها ببعض الراحة والنوم ، بعد أن لف ساقه بضماده الاحتياطي وألبسها كاسية الساق ليحد من سرعة النزيف.

ولكن يبدو أن الجرح كان يستحق عناية أكثر ، لأن الدم المنبثق من الجرح خرق الشاش والقطن وكاسية الساق ، ثم راح ينبع بغزارة فامتلأ حذاؤه حتى الكعب ، وصارت خطواته تحدث صريراً كأنما هى تغوص في وحل رخو مما جعله يتخذ اجراءات أخرى لاتقل عن سابقاتها استهتاراً بالجرح ، حتى أضحت ساقه بعد أن ألبسها كاسية ساق أخرى وشالاً من القطن وقميصاً عتيقاً له ، أضحت كأنها جذع شجرة زيتون ضخمة ومزمنة. لاشك في أن هذا التعبير فاشل ، شجرة زيتون ضخمة ومزمنة . ان الشجرة لاتتألم وهذا هو الفرق .. فقد كانت الحياة تفارقه قطرة اثر قطرة . . كانت الحياة تنتزع من قدمه انتزاعاً وتنسل من أطراف أصابعه بهدوء حتى راح يشعر بها وهي تتبخر دون أن يستطيع عمل شيء حيالها .

كان الملازم لا يزال يقف جانباً ينتظر انتظام الصف ليقول لأفراد الفئة : ياأبنائي ـ وقد يقول شيئاً آخر بهذه المناسبة ، غير أن الرغبة في النوم وبعض عوامل أخرى جعلته يحس بأنه لم يعد يستطيع أن يقول شيئاً حتى ولا « يا أبنائي » .

أين هم أبناؤه ؟. خمسة وأربعون رجلاً أين هم ؟ . . هل

هذه فئته ؟! خمسة عشر رجلا فقط .. كان يتألم .. ولكن هذه الكلمة « الالم » لاتعبر عن شيء . . لقـــد كان يعيش الالم ، والألم يعيش فيه . . الالم بجميع أنواعه . كان يقول ياأبنائي انكم أسرة واحدة . . أسرتي أنا . . أنا ربيتكم .. وهذه هي أسرتي أصبحت الثلث فقط .

عشرون جريحاً وعشرة آخرون ، ثلاثة سقطوا بين القمح ، واحد في رأس الجسر ، علي أحمد المحمد .. كان بطلا ، سهل لرفاقه العبور . ألقى في روع اليهود حراس الجسر أنه على رأس لواء كامل .. فروا عندما تبعهم وفي صدره رشة كاملة من الرصاص . . كلهم أبطال . . أبطال حقيقيون ، إنها أسرة طيبة . وحامد الدرويش ، لا ، انه لم يمت . . ألم يقـل دعوني هنـا بين القمح واذهبوا .. سأعيش . . كان فلاحاً يحب القمح لذا لم يشعر بالموت وهو بين السنابل ، كان يتخيل بأنه سنبلة .. لقد حفر الارض بيديه ودفن وجهـه فيها .. إنه سنبلة . سينبت من جديد . . وفاضل الفلاح ، أنا ميكانيكي . . كان يصرخ وهو ينظف الرشاش الملتهب : أنا ميكانيكي سأرغم الرشاش على العمل. ذخيرة ياملقم ذخيرة من شان الله ، لقد احترقت يداه وفاحت رائحة شوائها بين حضيرة الرشاش ، ووسط المعركة ضحك أحدهم صائحاً : لحم مشوي ياشباب . . لقد سقط وهو يحمل الرشاش

مع منصبه ويقفز به كأنما هو يحمل قشةصغيرة .. كان حضيرة وحده .. ان الشجعان لايموتون .. صحيح لم يمت .. لا لقد مات ..

ورفع الملازم يده الى جبهته ، لقد أصابني الدوار .. وتطلع الى الحيز الذي كانت تشغله فئته قبل أن تتقدم لتحتل المستعمرات..

وصرخ الرقيب الأول ـ انه عصا الملازم ـ كان يقول ذلك ولم يكن كاذباً فهو يشبه العصا الى حد كبير . كان طويلاً ونحيلا ، له وجه ضفدع ، غائر الجبهة جاحظ العينين ، ولعل الصفة الاخيرة لازمته منذ أدمن على الصراخ .. يميناً .. ترا .. صف .. لايزال الرقيب الاول ينشد الانضباط حتى في أحلك الاوقات ، وينبض عرق ازرق في عنقه فهو يكاد ينفجر من الغضب . ارفع بارودتك يا .. وابتلع الكلمة ..

وتقدم الملازم من الصف يتكىء على عود معكوف الرأس، يجر وراءه جذعه الدامي . لقد قصرت قامته المديدة بعض الشيء وأصبح مائلا قليلا الى اليسار غير أنه مازال محافظاً على هيئته العسكرية ولا شك أن ذلك كلفه الكثير من الجهد .. جمدت امارات الطيبة والعزم على وجهه وتراكم فوقها ألم مرير .

نظر الى أفراد فئته وحاول أن يتقدم ثم وقف يتأرجح ورفع يده في وجه الرقيب الاول الذي هب لنجدته .. ولم ينبس بحرف واحد .. ثم وقف يتصبب من وجهه عرق غزير ..

لقد كسبتم المعركة أنتم ورفاقكم .. لا . . يجب أن أقول شيئاً آخر .. كلمة أبلغ .. انني أتألم .. لا لن أقول ذلك . . ضعف .. لقد علمتهم القوة . . الضعف كلمة لايعرفونها . . أنا غير ضعيف .. ان كبريائي ..

كان الجنود يقفون كالأصنام التي ترتكز على قواعـــد غير ثابتة ، خيل إليه في بادىء الأمر أن عينيه تخدعانه . هذه هي الحقيقة انهم متعبون ولكن .. لماذا لا أتكلم .. يجب أن ينصرفوا..

كانت قيافتهم ، بنظر الرقيب الاول ، مخجلة وخوذهم لاتزال ملطخة بالوحل ، راحوا ينظرون اليه ، يحدقون النظر الى وجهه، الى عينيه ، خيل إليه أنه سيسقط قبل أن يقول شيئاً ذا أهمية بالغة . ضاعت آمالهم بالنوم والراحة ، لم يعد أحد يفكر في التعب. ضموا بنادقهم الى سيقانهـم العارية بصورة أكثر حزماً ، بدأت قاماتهم تستقيم شيئاً فشيئاً . راحت تقلصات وجوههم تنفرج . وزعوا أثقالهم على القدمين بالتساوي ، بدأت رؤوس أقدامهـــم تتحرك . تنفسوا بارتيـاح . لقد تعلموا أن يستريحوا لتوجيـه ضابطهم فهو يحدثهم كأب .

وظل الملازم صامتاً ، جامداً ، كأنما غرس في الارض ، ينظر في الفراغ المتبقى بين البراكتين . كانت فئته قبل المعركة تأخذ المسافة كلها . انه الآن لايتطلع الى أحد . ربما يتخيل الباقي فيما

لو عادوا جميعاً .. فاضل وحامد ، وعلي أحمد و .. ولكن لماذا يعودون ؟ . ألم يؤثروا البقاء في الارض التي يحتلونها ؟ . لقد احتل علي أحمد الجسر وبقي فيه ، وفاضل لايزال مع رشاشه ، وحامد مع سنابله .. ونحن عدنا وحدنا سالمين .

وصحا الملازم .. ياإلهي هل يمكن ذلك ؟! . هل نمت وأنا واقف ؟ لا يمكن ذلك .. وأحس بأنه يغوص في الارض ، حاول أن يتقدم فلم يستطع ، وحرك قدمه السليمة .لا . . إنني مسمر في الارض ..

وخيل إليه أنه استغرق في النوم مدة طويلة والجنود ينتظرون ..

وتوقفت الى جانب الطريق سيارة ،رسم عليها هلال أحمر، هبط منها جنديان يحملان نقالة .. ولم يلتفت الملازم .. بل أطرق الى الارض قليلا وحرك لسانه في حلقه يجرض بريقه بصعوبة فائقة . ثم تمتم بصوت مبحوح ، لم يقل شيئاً غير كلمة واحدة: « ياأبنائي ».

أكسبها كل مافي نفسه من حب وحياة وألم...

المسافر

لبثت اثنتي عشرة ساعة انتظر القطار . وليس ذلك غريباً في محطة القامشلي حيث تبدأ الحدود السورية التركية . وحين يقول لك مأمور المحطة إن القطار سيصل في الساعة الثامنة فمعناه أنه قد يصل مابين الساعة الثامنة والعشرين وما عليك إلا أن تنتظر هذه الساعات الطوال . ولا يمكنك أن تغادر المحطة حتي يوم القيامة ، لأن القطار يمكن أن يصل في كل لحظة . كانت أمتعتي تتكون من حقيبة كبيرة وفرشة وسلتين ..

ولم يكن ثَمَّ شيء يضايقني في بادىء الأمر غير ربطة العنق التي كنت أحاول أن أبدو بها وجيهاً بعض الشيء في عيون العرب والفلاحين الذاهب لتعليمهم . . اثنتا عشرة ساعة لست آسفا عليها ، لأن وراءها قصة حزينة قد جرت . كنت خلال هذا الرتل الطويل من الساعات أتنقل بين غرفة الانتظار ومستودع البضائع ومن أكياس الحنطة الى الرصيف ومن غرفة المأمور الى المقهى . . . هذا المقهى الذي شهد عقد صداقات لم

تلبث أن حلت حين كان يختفي طرفها الآخر .. ماذا فعلت خلال هذه الساعات الطوال ؟ لقد وزنت نفسي على قبان البضائع خمس مرات وفي كل مرة كانت النتيجة مخالفة لسابقتها ، وطاردني شخص زعم أنه يعرفني فسلبني شطيرة وكأساً من الشاي ثم هرب .

ثم تعرفت على موظف ادعى أنه مسافر الى دمشق وأنه يعرف والدي وسرد لي كثيراً من مغامراته واستدان مني ليرة ثم اختفى .. وكنت أتفقد أمتعتي فألفيها كاملة وإن كنت أجدها قد سارت خطوة أو خطوتين وتفرقت تم تجمعت وقد أنزلتها مرتين من عربة البضائع حين ادعى الحمال انها لأحد المسافرين الذي أوصاه بالمحافظة عليها . وحوالي العصر قدم الى المحطة فلاح عجوز يحمل على كتفه زوجته المريضة ، حيث سجاها على الرصيف ، وشرع يهيىء لها وسادة من الاحجار . تعرفت بالمحطة على كل شيء حتى صرت من أهلها ، وحتى الكلب الهزيل الذي كان يتنقل مع الظل جعل يتابعني بعينيه الحمراوين .. ولعله كان يظن أني صديق قديم . تعرفت على الفلاح العجوز وعلى زوجته التي كان يروعني اصفرار عينيها الجاحظتين . وتوطدت بيننا أواصر الصداقة حين أنبأني أننا مسافرون الى قرية واحدة ، وتطلعت إليّ زوجته قائلة : « سأرسل اليك ابني لتعلمه القراءة » وأحببتني هذه كثيراً وابتسمت لي وهي تقدم لي برتقالة كبيرة ..

وظلت تراقبني حتى أطبقت جفنيها ونامت . . وفيما كنت أتفقد أمتعتي في العتمة أحسست بيد خشنة تحط على كتفي وصوتاً متلجلجاً مرعباً يهمس في أذني :

ـ لقد ماتت ..

ـ من هي ؟

ـ ماتت زوجتي ؟

لا بأس منذ دقائق كانت امرأة تبتسم لي وهي تقدم لي برتقالة بيدها ثم حدثتني عن ابنها وقالت لي إن بيتها الى جانب المدرسة وإنني سأزورها لتقدم لي بيضاً ولبناً . . منذ دقائق كانت هذه المرأة تتكلم والآن يقول لي : ماتت . . ماتت . . وماذا يهمني ان ماتت ؟ هـأنذا في محطة مظلمة بعيدة جداً عن أهلي وعن المكان الذي ترعرعت فيه . . وأمامي شيخ عجوز لا أعرفه وبعد انتظار ساعات طوال . . أجد الى جانبي امرأة ميتة وكانت حية منذ أمد قريب جداً .

ترى من أنا ؟ أنا ذلك الشاب الذي سافر منذ ثلاثة أيام من بيته تودعه أمه بقبلاتها ودموعها ؟ كان الشيخ يقف أمامي وهو يرتجف كأنه يستمد مني المعونة :

ـ ماذا نفعل الآن ؟ ستساعدني أليس كذلك ؟

يالسذاجة هـذا الشيخ ! هل يظنني ضابطاً في الجيش ؟ أم

يظنني بطلا من أبطال الاساطير الذين لا تروعهم امرأة تموت الى جانبهم ؟ لعن الله هذه الربطة لقد جعلتني رجلاً حقاً . وامتدت يدي الى عنقي ونزعتها ثم دسستها في جيبي . إن عاد هذا الرجل فسأبكي أمامه .. إنني خائف أكثر منه .. ولكن ماذا لو حملني على مساعدته ؟ سوف استغيث .. سوف أهرب .. كان يجب أن يعرف من أنا حين لم أجرؤ على السؤال والاجابة .

وقدم القطار .. قدم يحدق حواليه بعيون خابية حمراء ، أضناها السهر والانتظار . قدم يجر وراءه رتلاً طويلاً من العربات الثقيلة ، مردداً أنفاسه المحروقة غيظاً وغضباً ، أما عربة المسافرين الوحيدة فكانت مكتظة معتمة .

وألقى الحمال بأمتعتي من النافذة فسقطت فى الممر .. لا بأس سنصل في وقت ما الى القرية أنا والشيخ والمرأة الميتة .. سنصل نحن الثلاثة بموكب حافل .. والآن يجب أن أفتش عن مكان لأمتعتي . وانحنيت أبحث تحت المقاعد بين أقدام النائمين وفوق الرفوف حيث أنفاسهم تلفح وجهي وشخيرهم يطغى على شخير القاطرة . وفي كل خطوة أخطوها كنت أتعثر بقدم . فتنهال علي الشتائم بلغات عديدة لا أفهمها .. وكانت لا تغيظني ، كنت أتحرك كالآلة .. كالأسير .. إن شيئاً طغى على حواسي جميعاً .. وسفحت امرأة على وجهي بصقة كبيرة ثم غطت في نومها من

جديد . . ولم يضايقني قشر البيض والموز والمياه المراقة على الارض كما ضايقني وجود أمتعتي في منتصف الممر .

وبكى طفل فجعرت أمـــه في وجهه كالبقرة . . ثم نامت ولكنه لم يسكت فهزته . . ثم عصرته . . فاحتبس صوته وأخذ يئن فصاحت به غاضبة ثم أفلتت منها صيحة مرعبة . . كنت أنا أتحرك وأسمع ولكن كالنائم . . وغيّر بعض المسافرين وضعهم ، ثم عادوا للنوم وشخروا من جديد . ولكن ما إن بدأ القطار يتحرك حتى كانت العربة قد انقلبت الى مايشبه السفينة الغارقة . كانت الاصوات تتردد ، متنافرة متباينة ، من خليط من لغات حية وميتة . . وبين الجميع كان صوت الفلاح الشيخ يصيح : « لاتخافوا . . مسكينة !. مريضة !. انها بعيدة عنكم . . اسكتوا من شأن الله سيسمعونكم » لاأدري من أين أتى الفلاح بزوجته الميتة ؟ غير أني أدركت أن أول من أحس بها هو وجه الطفل النائم حين اصطدمت به قدمها الباردة . ولو أدرك الطفل ماهذا الذي لطمه على وجهه لآثر الصمت . . وأراد رجل أن يعود الى مكانه فتعثر بأمتعتي ثم انكفأ على وجهه وحاول النهوض . فمست يده وجه الميتة فعوى رعباً وهلعاً . . وانطفأت الاصوات وسكت كل شيء . ماعدا عجلات القطار فكانت تردد مسرعة : ميتة . . ميتة . . ميتة .

وكانت تدور وتدور مولية هاربة كأن شيطاناً يهددها بالفناء ، كأنها تسرع لتتخلص من الميتة التي تحملها وومض نور من آخر العربة ثم اشتعل عود ثقاب ونفضت عيناي العربة : كان المسافرون جميعهم قد جلسوا منتصبين كجثث محنطة . وانطفأ النور ثم أخذت لفافة تحترق وتنتشر حولها دخاناً ثقيلاً . واشتعلت لفافات أخر شرعت ترتفع وتنخفض كأرواح تائهة ومن فوقها عيون محملقـــة فيما حولها ، يشع منها الذعر والرهبة ، لقد استيقظ المسافرون جميعهم ماعدا واحدة فقد بقيت ملقاة في الممر جانب فرشتي التي سأنام عليها .. واطل من باب العربة فانوس صغير تبعه هبة ثائرة من الهواء البارد ثم أغلق الباب . فتوقف قاطع التذاكر عند المقعد الاول ، وامتدت اليه الأيدي بالبطـاقات فبدأ مقصه يقضمها كفأرشره . وسمعت صوت امرأة تقول له شيئاً . . فلم يجب ولعله لم يفهمها وتابع سيره حتى وصل الى منتصف الطريق .

ـ ماهذا ؟

وأدنى فانوسه من الأرض .

ـ مريضة ياسيدي .. مريضة لم نجد لها مكاناً !

ـ اجلسها جيداً .. لقد سدت الطريق .. أين تذكرتها ؟

وناوله الشيخ بطاقتين قضمها بمقصه وأراد أن يخطو من فوقها فتعثر بقدمها الممدودة

ـ اسحبي رجلك ..

وتوقف لحظة ثم استدار الى الخلف وسلط نور قانوسه الى وجهها وقال بهدوء :

ـ انها ميتة !

ـ لا والله ياسيدي .. لا والله مريضة .. فقط.

وخيّل إلي أن الشيخ يبكي .. يا الله سوف يقذف بها من النافذة . ومد الرجل يده الى صدرها وشرع يهزها بعنف ثم نظر الى وجهها وهز رأسه .

ـ انك تكذب .. هذه امرأة ميتة ستنزل انت واياها الآن .

وتابع سيره ولم يتردد الشيخ اذ سرعان ماتبعه واختلى واياه في الظلام .

ثم عاد يحكم وضع محفظته ..

ورجع بعد برهة قاطع التذاكر يصحبه المفتش . ودار هذا على المسافرين يتفحص بطاقاتهم ثم توقف عند المرأة الميتة :

ـ ما هذا ؟

ـ امرأة مريضة ياسيدي.

وأراد المفتش ان يتوقف فسبقه مرؤوسه بالفانوس . وبقي الظلام والصمت وحدهما يتعانقان وسط العربة المتمايلة .

وتوقف القطار ونزل المسافرون الثلاثة . . وتطلعت حولي

ترى أين القرية ؟ لا أرى حولي غير بنـــاء قاتم وسط الفراغ والصمت والظلام .

واقتربت من مأمور المحطة وكنت أرتجف من البرد :

ـ أين القرية ؟

فأجابني بعربية ركيكة :

ـ القرية بعيدة .. من أنت ؟

ـ أنا معلم القرية.

فهز كتفيه ومضى الى غرفته وهو يسقط رأسه في جسده ..

هـأنذا أقف في مكانٍ ما من هذا العالم .. مكانٍ بعيدٍ بعيدٍ جداً .. لم تطأه قدم احد من أجدادي السابقين ، تلفني وحشة الليل ويصفر في أذني الهواء الذي يعزف على أسلاك الهـاتف موسيقى موحشة مرعبة .. وها هي ذي الى جانبي امرأة ميتة ، ملقاة على الرصيف كصرة مفكوكة ضاع صاحبها .

لقد تركها زوجها ليبحث عن دابة ، ربما تركها لي لأحرسها ونظرت اليها .. أحقاً انني اقف الى جانب امرأة ميتة ؟ نعم هاهي الريح تداعب ثيابها ، وتكشف عن ساقيها ، وتبعثر شعرهـا . شكراً على برتقالتك ايتها الميتة .. لقد أكلتها ، وشعرت بالغثيان فاندفعت الى مأمور المحطة . ترى ما هذا الذي يتكلم تك .. تك .. تك .؟ انها الطابعة اللاسلكية ، لا بأس ان عند الرجل مايؤنسه .

وقرعت الباب .. قرعته مرتين فسمعت غمغمة .. وفتح الباب وعاد الرجل الى فراشه دون أي سؤال أو جواب .. ماذا فعلت لك ايتها العواصف الثائرة ؟ لماذا تتبعينني الى هنا ؟ لماذا تحاولين خلع الباب ؟ أقسم لك أنني بريء من دمها ، لست أنا الذي قتلتها ، أخرج من ثيابي أيها البرد القارس ، انني ارتجف.. لست أنا ، اني معلم .. سأعلم ولدها .. سوف ازورها لتطعمني بيضاً ولبناً .. كلا لم تمت ، اقسم لك انني بريء .. بريء .. بريء .

وأفقت .. كان الرجل يدخن الى جانبي وسمعت في الخارج اصواتاً ونحيباً يتسللان مع نور الفجر . . وسرنا الى القرية . . كانت الميتة ملقاة « كالخرج » فوق ظهر الحصان ورجلاها تتأرجحان على الناحية اليمنى وظهرها الطويل يعمل في خاصرة الحصان كالمهاز .. وهذا يسرع ويسرع ونحن نعدو وراءه . .

وسبقنا حصان الميتة ، ثم اختفى وراء خط منحدر آخر . . ونظرت الى بعيد .

كان الدخان يتصاعد من افران القرية ، والثيران تسير الى الحقول ولا شيء يعكر الصمت غير صوت حدوات الحصان الهارب .

شجرة البطم

يعاودني الحنين الى تلك الشجرة ، فاقطع مسافات شاسعة كي اصل اليها . هذه الشجرة مثلنا نبتت من التراب وارتفعت برأسها الى الله فعلمتنا كيف نحب الله والتراب .

إنها تشمخ في أعالي تل العزيزيات ، جبارة ، عاتية ، منتصبة دائماً ، صامتة لاتنطق ، ولكنها تختلج أحياناً اختلاجات معبرة عندما تصفر الرياح من حولها وتدور من خلال اغصانها العارية ثم تنفلت هاربة الى الشرق . فلا تخشخش فيها ورقة واحدة . في يوم ما تساقطت اوراقها ، ورقةً ورقةً ، كالدموع عندما شوّهت الحرب قوامها ، فثقب الرصاص صدرها وشقق لحاءها ، أما جذورها فبقيت متشبثة بالارض تريد ان تحتفظ بالتراب، الذي تحيا منه وتعيش فيه ، والشيء الوحيد الذي يحزنها انها لاتستطيع أن تظلله .. وكان لايزال يوجد في أعلى قمتها بضع وريقات مثقوبة تطير حولها العصافير ، ثم تغادرها خائبة الى شجرة اخرى لتبني عشها الأخضر .. يمر الجنود من حولها كل صباح يخبون

بأحذيتهم الثقيلة وبأيديهم قصعات الطعام وينظرون اليها نظرات عابرة ، ثم يتابعون سيرهم . يعتبرها بعضهم محارباً عظيماً خاض معارك طويلة خرج منها رافع الرأس ، ونقشت على صدره أوسمة النصر وبعضهم الآخر يتخيلها أماً عجوزاً فقدت أطفالها فرفعت أذرعها اليابسة الى السماء .. هنالك جنود حفروا اسماءهم على قشرها ثم عادوا يقرأون ذكرياتهم بأكمام فارغة ..

واتكأ عليها آخرون بأرجلهم ثم رجعوا يزورونها على عكاز . بدأت الحرب وتوقفت ، واستشهد جنود ورجع الباقون بأوسمتهم ، وظلت هذه الشجرة تحرس الحدود عالية راسخة ، تدس أنفها بين النجوم ، تهزأ بالارزاء التي لم تستطع أن تخدش جذورها وقد اقسمت ان تحافظ على الارض التي نبتت فيها وعاشت لها .. ويتتابع الليل والنهار والفصول الاربعة وشجرة البطم حية خالدة لايؤنس وحشتها غير ذكريات قريبة وشبان صغار يقرعون أرضها كل يوم بأحذيتهم المسلحة بالمسامير ..

منذ أربع سنوات ، والى يمين هذه الشجرة ـ قبل أن تشيخ ـ اصطفت مفرزة الدفاع على تل العزيزيات .. كنت اقف شارداً مستنداً الى الشجرة عندما سمعت احدهم يقول لرفيقه وكأنه يغني حديثاً آخر :

ـ الهواء حار خانق سينشط الناموس هذه الليلة .

وكان آخرون يتحدثون بأصوات خافتة . والرقباء يطوفون برشيشاتهم حول حضائرهم يجرون التفقد .. وطرق سمعي اسم جندي وفد جديداً الى المفرزة ينادى مرتين فلا يجيب ، وهزني اسمه وجعلني اصغي وتمنيت لو ابحث عنه .. كانت المفرزة تضم جنوداً من جميع الاعمار ولكن هذا الجندي بالذات كان يشعرني أنني لا أزال طفلاً صغيراً . ماذا أقول لهم الآن ؟ لن أقول شيئاً ، سأحدثهم عن انفسهم أثناء التفتيش فحسب .. ولكن عن أي شيء أفتش ؟ أعن زر مقطوع أم عن حذاء وسخ ؟.. ان الاشياء لاتهمنا هذه الليلة مادامت جيوب الرصاص منتفخة والصدور تتوقد حماسة وشجرة البطم وراءنا والعلم العربي يرفرف صاعداً ، تمد شجرة البطم اجنحتها اليه .. سأقول لهم :

ـ اسمعوا ايها الاصدقاء ، سنحارب معاً في صف واحد ، رئيساً ومرؤوساً ، نسكن هذه البيوت الطويلة التي حفرناها في ارضنا ، ان سعادتكم جميعاً هي سعادتي مادمتم انتم سواعدي وحواسي ، وهذه شجرة البطم من ورائنا جميعاً تمدنا بالثبات والرسوخ في الارض التي نبتنا فيها ..

ولكن لا .. أريد ان أتحدث عن شيء جديد . . ماذا اقول ؟. كانت بنادقهم مضمومة الى جوانبهم كقطع من اكبادهم وعيونهم تومض بالافكار التي يضمرونها .. ووقفت امام العريف

حسين وكانت السنون قد منحته رتبتة على جبينه وخديه قبل ان يعلق رتبته على ساعده .. فيم تفكر ايها العريف ؟

ـ لا شيء ياسيدي .

وقال لي الوكيل من الخلف :

ـ لقد صار أباً ياسيدي .

ـ صحيح .. ما اسمه ؟ . سمه شبلا

ـ .. لاأدري بعد ياسيدي ان كان ذكراً أم أنثى .. فقد دعيت الى الصف قبل أن أتم قراءة الرسالة . .

لابأس ، هناك وليد ينام في سريره لايحلم بشيء وهنا أبوه يحلم به ويتساءل عن لون عينيه ، وقد يعود يوماً هـذا الأب ليضم ابنه الى صدره وقد لايعود ، فينشأ الطفل ويصير رجلاً يتحدث عن أبيه .. جميل أن يكون للانسان ابن على كل حال لقد قالت لي أمي ذات يوم : يجب أن تتزوج ياولدي .. اقتصد قليلاً . وسألبي رغبتها لو تحققت ثلاثة شروط صغيرة : الموافقة والمال وأخيراً الزوجة .. وعلى كل ان لهذا الجندي الذي يقف في الخلف رأياً في ذلك وتقدمت اليه .

ـ أين كنت يا ؟ ..

أجاب الوكيل من الخلف :

ـ لقد تأخر عن الاجتماع . .

لا أدري أكانت مصادفة عجيبة أم خطة مدبرة أن يجتمع ابن ضابط وأب جندي في مفرزة واحدة . الافضل ألا أفكر في ذلك ، يجب أن أكلمه كرئيس وعليه أن يطيع . وبعد ذلك سأخلو الى نفسي وسأحاسبها سواء أكنت مخطئاً أم مصيباً . نظرت الى عينيه وأنا أحبس في حنجرتي تأنيباً شديد اللهجة :

ـ عليك أن تحضر لمواجهة آمر السرية .

لم أستطع أن أقول غير ذلك سوى أن أنفلت من الصف متجهاً نحو العريشة ، هائماً على وجهي كمهان راح يثأر .. وفيما كان رأسي يصطدم بالسقف الواطىء سمعت صوت الوكيل يعطي إيعاز إملاء السلاح .. انها تجربة قاسية كلما رفعت رأسي امامه شعرت بالانحناء ، وكلما علا صوتي فوق صوته أحسست ببحة ، كان يأمرني ان اذهب في الليل لأبي له طلباً ، والآن آمره ان يواجه آمر المفرزة ، ولكن مايعزيني هو اننا نحارب معاً ـ الأب والابن ـ وفي صف واحد . من العسير علي ان انسى هذه الابتسامة التي كانت تعلو شفتيه . كنت اعرفه كجندي .. كأب اما كمرؤوس . لابأس . ودفعت رأسي بين كفي . . ومن خلال اصابعي لمحت شبحاً يخي هامته ثم يدخل وعلى قيد ست خطوات وقف والدي امامي وقفة استعداد .

ـ ينبغي ان يعلم الجميع انني أنا ابنك وأنك انت والدي . .

- تمهل ياولدي .. انها فكرة لم تنضج بعد .

لا .. بل يجب ان يعرفوا جميعاً .. لاتضحك هكذا ، من المستحيل ان تدرك مشاعري .. انني اتعذب .

- أكاد أشك في أنك الشاب نفسه الذى كنت اعرفه . ألم تمر بك ظروف قاسية بعد ؟ لم اذن هذه الثورة .. ؟ ترى الا تدرك كم أنا فخور بك ؟. أيجب علي أن أفسر لك ذلك ، سوف تدرك كل شيء غداً . وما الفائدة من ان يعلم الجميع أنك ولدي ..

- يمكنني على الأقل أن اتخلص من هذه المشاعر التي تخنق صدري .

- اسمع ياولدي يا رسلان .. ياسيدي الملازم .. انني جندي وانت ضابط ، هل تدرك ماسيحدث لو علم الآخرون غير ذلك ؟ سيقولون انني أبو الملازم رسلان وسيقولون انك ابن الجندي فلان ، وسيصهروننا في بوتقة واحدة ..

وصمت والدي ووقفت أتطلع من كوة العريشة الى الجنود وهم يزحفون الى كمائنهم متفرقين في حضائر طويلة متسترين ينبضون كشرايين الدماء التي تنبع في صدر الحياة .. لا ادري فيم كنت افكر ، حسبي أن أخفي وجهي عن عيني والدي الحادتين اللتين تكادان تخترقان رأسي لتعلما مايجول فيه ، وسمعت صوت احد الجنود يقول لرفيقه :

ـ تُرى هل لها عينان زرقاوان ؟.

ـ ولكن عيني سوداوان .. وعرفت انهما يتكلمان عن الوليد .

ـ ألم نقل أن لأمها عيناً من زجاج ؟

وعرفت أنهما يتكلمان عن الوليد ورن فوق الجميع صوت خشن مألوف:

ـ هَسْ ، بلا لغو خمس خطوات مسافة دون قرقعة . .

ودلف الرئيس (نضال) الى العريشة بقامته الممشوقة وقال بخشونة :

ـ ماذا يفعل هذا الجندي هنا ؟ يمكنك ان تأمره بالانصراف.

والتفت الى والدي فلم أجده ..

ـ اسمع يارسلان .. ان رفاقنا اخترقوا الجبهة من قطاعين وهم يتقدمون باستمرار وفئات اليهود تتحطم على صخورنا اليابسة وتذوب فقاعاتها . وهم ككل جسم اذا ماضغط احد اطرافه اندفع الطرف الآخر منه . اريد ان تكون هذه الليلة حاضر البديهة صافي الذهن ..

ثم اقترب قليلا وتفرس في وجهي :

ـ مابك هل يؤلمك رأسك .؟ انني لا أحب العيون الحمر .

وتمنطقت بمسدسي وهممت بالخروج فسألني :

ـ هل عينت راصداً أمامياً ؟

ـ رصاد الامس انفسهم

ـ نبئت ان هذا الجندي الكهل يحب السهر ، فعينه حتى منتصف الليل .

وكان يشير الي والدي.

ووقفت فوق فوق صخرة عالية ابحث عن ذرة هواء . . وزحف الصمت مع الليل وجثما على التلال المجاورة وغطيا السهول والأودية .. وترجرج الشفق الاحمر قليلا فوق جبال الجليل ثم حجبته غيوم بيضاء واصبح البصر مهما امتد لايرى الى ابعد من خمس خطوات دون ان يميز الحجر من الخوذة بل يخال ان الحجارة تتحرك ..

في هذه اللحظات يتنحنح المرء ليسمع صوت نفسه ، ويظل صدى حنجرته يدوي طويلا حتى يسمع انين ناموسة جائعة فيتسلى بانغامها الكئيبة حتى تهبط فوق وجهه فيرفع يده بقوة ثم يسحقها وسواء أأحس بدمائها اللزجة تلوث وجهه ام لم يحس فهو لابد سامع صوتها من جديد تئز فوق رأسه . وأخذ الوقت يزحف بطيئاً ثقيلاً يجر وراءه حلك الظلام والصمت .

ورجعت الى العريشة فوجدت الرئيس يمزق بعض الاوراق وسألني:

ـ كم تحمل من الخرطوش ؟

ـ خمسين طلقة .

ـ خذ خمسين أخرى ، تفقد خطوط الهاتف سأتصل بك في الكمين الايمن . ابق هنا ريثما تأتيك اوامر جديدة . انزل جنديين الى الوادي وزودهما بفشك الاشارة .

ـ سأفعل ذلك ياسيدي .

لصقت كعبي ببعضهما ورفعت يدي ثم استدرت ففاجأني :

ـ من هذا الجندي الذي كان هنا ؟

ورن جرس الهاتف فتلقفه بسرعة ووضعه على اذنه: ألو.. ألو.. نعم.. من ؟ألو.. وصمت قليلا ثم هز السماعة ونفخ فيهاوقد اربدت سحنته . وهزها مرة ثانية وصاح ألو . . ثم القى بها الى الارض مهمهماً :

ـ لقد قطع الخط ..

وتقدم خطوتين ثم رجع وجال بنظره وسط العريشة واطفأ الشمعة . واتكأت جانب الرئيس الى الشجرة ، وقال لي بسهوم :

ـ هل احدثت بنفسك هذه الشجرة اثراً ؟

ـ أراك ياسيدي تشاركني التفكير فيها . قال : نعم انها جندي عظيم (وحاول ان يعانقها ويهزها ..)

ـ انها راسخة كالطود حبذا لو سلمناها مدفعاً و ..

... الهاتف مرة ثانية . وعاد الرئيس بسرعة وسمعته يصيح : انتظروا لاتطلقوا النار .

ان من مبادىء احتقار العدو والاستهتار به ان تدعه يتقدم اليك وأنت مكتوف اليدين ثم على بعد خطوة واحدة تعالجه بلطمة شديدة فان لم يمت من اللطمة مات من الخوف .

كانت رشاشاتنا مسلطة على الوادي الأيمن والسهل المنبسط أمام التل . وكانت نيرانها متشابكة لدرجة يصعب فيها تسرب نملة ضائعة . شيء واحد يجعل أزندة الأسلحة تنحني الى الخلف فتلهب الارض وتحصد ماعليها . هذا الشيء هو طلقة من الراصد أو صيحة انذار . وكنت في كميني عينين ثاقبتين وأذنين تستنطقان الحجارة الصماء . واقتربت من الرامي هامساً :

ـ كيف حال رشيشك ؟

ـ لقد نفد صبره وصبري منذ عشر دقائق وأنا أسمع ارتطام رؤوسهم بالاحجار .. اني أخشي ..

ـ ماذا ؟

ـ أخشى أن يكون الراصد .

وفجأة نطق الراصد .. إذ انطلقت بندقيته خمس مرات متعاقبة وتلا ذلك انفجار نيران بندقية رشاشة بعثت رصاصاتها المتساقطة حولنا نوافير صغيرة من التراب وقطع الحجارة . وأزّ الرصاص وصفر ، وراحت القذائف تمزق الارض غضباً وتصرخ في انطلاقها صراخاً يبدد سكينة الليل والسماء .. وكأنما فوجيء العدو

بالشياطين تنبع من بين أقدامه فأخذ يتراكض ويدور حول نفسه بهياج شديد . وارتفعت أصوات صادرة آمرة ، مملوءة (بالشينات والميمات والخاءات) ونكص اليهود مهرولين متلفتين كل ناحيه مقوقين كالاوز ، وانطرحوا متشبثين بالاحجـــار والرصاص يتواثب من حولهم كنفوسهم التي تتطاير شعاعاً ، وارتجفت الارض وانطلقت قذيفـــة عدوة تصلي التل ناراً محشرجة ، وحبست رشيشاتنا أصواتها تستعد لصيحة جديدة . وكمن يخبط خبط عشواء أخذت قذائف المدفعية العدوة تتساقط من ورائنا محدثة أصواتاً مجنونة وانقلب الليل الى جحيم . وفي هذه اللحظات لايقاس الوقت بالدقائق بل بمقدار المفاجآت والحوادث .

ـ ماهذا الصياح ؟ . .

ـ انه الراصد مازال في الأمام ويأبى أن يتراجع .

ـ كيف ، هل جن ؟..

ـ كلا ولكنه ج . . جرح .

وتحت شجرة البطم كان ابي يستلقي في نقالة خشبية ، وقذائف العدو تتساقط باستمرار تظهر في نورهـــا الأزرق خوذ الجنود راسخة كالابراج براقة كسنان الرماح ثم تنفجر كصيحة جريح يائس فتهتز شجرة البطم وتسقط منها بضع أوراق جافة . .

ونهض أبي من النقالة يريد أن يلقي بنفسه من أعلى التل . .

ـ لماذا ؟ لماذا أتيت الى هنا .. ألأحمل كالاطفال ؟..

ـ مهلاً يأبي . انتظر قليلا سنرجع الآن معاً .

ـ أراد الكلاب أن يفاجئوني .. ارفعوا ايديكم عن صدري لست جريحاً أريد ماء فقط ..

وأخذ يزدرد ريقه كما تزدرد ورقة نشاف الماء .

ـ افتحوا الباب .. أخرجوني من هذه الغرفة المظلمة .. وسبح وجهه في عرق بارد ..

ـ أعطني المطرة ، انها هنا (وتحسس جنبه) آه .. أين هي ؟ سرقت .. سرقوها ؟..

ووضعت فوهة المطرة بين شفتيه وأخذت أسكب الماء .. ففتح عينيه وأخذ يبتسم :

ـ والآن ماذا تريد مني ؟ لماذا لاتتركني أذهب في طريقي ؟ اتركني أمت على السلاح .. أين بندقيتي ؟ أراني أحنث باليمين ..

وأغمض عينيه واخذ يغمغم ..

ـ لقد أقسمت في يوم ما ألا اموت إلا على السلاح ، وألا أهجر رفيقي في المعركة وأن أناضل حتى الرمق الاخير .. وأن.. أين البندقية ؟

ـ هاهي خذ .

ـ دعها الآن كيما أستريح .. هل تظنني جرحت ؟ (واستأنف صلاته) وأقسمت أن احترم دين أجدادي أين جدي ؟ لقد شنقه

الاتراك وأين جدك ؟ أعدمه الفرنسيون .. لقد ماتوا دون أن يتركوا لنا سوى الأمل ، آمالهم جميعاً .. أين المطرة ؟

وسكبت فوق وجهه الماء ، فتنهد واطبق شفتيه .. وأخذ ينظر الي ..

لقد مات جدك دون أن يطلب مني ان أبني له قبراً من رخام ، كان يريدني فقط ان أتم الرسالة التي بدأها . هأنذا لم أمت .. ولن أموت مادمت انت ولدي، ستسلك الطريق نفسها.

ورفع يده وتحسس وجهي ..

دعني أستريح ولاتجعل لموتي ضجة . اننا نفقد شرف التضحية عندما نعول فوق رؤوس شهدائنا دعنا نمت بصمت فذلك عمل خالد.

ورفع رأسه ومد يده الى الارض وغرس ساعده في التراب.

ـ انظر الى هذا التراب ، كنت اسكن فيه فسمعته يناديني بصمت انني ظامىء . اسقني قليلا من دمك لانبت لك شجرة الحرية ..

وضم قبضته الى صدره واطبق جفنيه وغمغم : ايتها الشجرة ضميني اليك انت التي لن تنامي يوماً على نقالة .

لاتزال شجرة البطم منتصبة صامتة ، وتل العزيزيات لم يفقد سوى قبضه من تراب اطبق عليها والدي بأصابعه وظل يضمها الى صدره الدامي وروحه تصعد الى السماء .

نداء الوطن

امتدت اصابع طويلة ذات عقد بارزة الى صدر ابراهيم القابوني ، وفتحت شق القميص الازرق الذي يرتديه على اللحم وبعد ان تنفس قليلا من الهواء النقي غير الممزوج بتراب الحقل أحس بأن قواه المتلاشية بدأت تعود اليه فخطا خطوتين ، وارتمى في أحضان شجرة الجوز العتيقة التي قال له أبوه ذات يوم بشأنها قبل أن يموت :

ـ انظر يا ولدي يا ابراهيم لاتقل انني تركتك وحيداً ، انها تحمل ثلاثة قناطير كل سنة فحافظ عليها .

كان ابراهيم فلاحا ترعرع في الارض وعاش منها واليها ، فقد استنشق غبارها منذ نعومة اظفاره ، واختلط لعابه بترابها عندما كان طفلا ، وظلت هذه الارض تغذيه كما تغذي نباتاتها حتى جاوز سن الشباب واشرف على الشيخوخة .

وكان في هذا اليوم الحار من أيام آذار يزرع شتلات

الخضرة في حقله الصغير ويفصل بينها بواسطة أخاديد صغيرة ليعمل على فتح الساقية التي تروي الشتلات عند الانتهاء من عملية الغرس .

وفي تلك اللحظة كان قرص الشمس الملتهب يتوسط كبد السماء ، ويصوب سنان أشعته الواخزة عمودياً على الارض ، حتى ليكاد يحرق ماعليها ..

ولاك ابراهيم اللعاب المترب في فمه ، ثم مد يده الى ابريق الماء الفخاري القابع الى جانبه ، وافرغ نصف محتوياته في جوفه وما كاد يبتلع ريقه الرطب حتى سمع صوتاً قريباً يناديه :

ـ قواك الله يا ابراهيم ..

فالتفت ناحيـــة الصوت ليرى فارساً ملثماً ، تلتمع صفوف الرصاص وأجندته حول صدره وخصره ، وقد احتضن بندقيته القصيرة أمامه فعرف على التو أن مخاطبه هو حامـد الطحان المعروف بأبي الموت وقد ظهر فجأة بعد ان اختفى فجأة دون سابق انذار .

وأجاب الشيخ من صميم قلبه مرحبا :

ـ الله يقوي شبابك يا أبا الموت تفضل .. حَوّل . وكان الفارس قد وصل الى الشيخ بينا كان حصانه ينخر من فتحتي خطمه بشدة وعصبية وقال الفارس :

ـ بالله عليك يا ابراهيم أممكن أن تسقيني دمعة ماء ! .

ومد الشيخ يده الى الابريق بلهفة وراح يهزه مطمئناً .. ثم قال :

ـ ماتكرم عينك .! الله يعطيك العافية .

وأراد أن يسأله بضعة اسئلة على سبيل الاطمئنان غير ان الفارس لم يمهله . اذ ما كاد يعيد الابريق الى صاحبه حتى جمح حصانه فجأة واختفى وراء سحابة من الغبار في طريقه الى القرية.

وهز الشيخ رأسه متمتماً :

ـ الله يكون في حراستك يا ابني ..

ويبدو ان دعوة الشيخ كانت متأخرة بعض الشيء ، اذ ما كاد يفكر في أن يستلقي قليلا ليستروح شيئاً من القيلولة ، حتى سمع هدير محرك يتجـــه صوبه ، والتفت بتؤدة الى الخلف ليرى بعينيـــه الكليلتين سيارتين مصفحتين بلون الارض تتجهان اليه وقبل أن تتوقفا تماماً هبط من احـــداهما ضابط فرنسي وابتدر الفلاح بلهجة مفككة ركيكة :

ـ انت بتعرف واحد مسلح راكب حصان مر من هنا . ؟

ووقف الشيخ محني الظهر يتكيء على شجرته ويتأمل جزمة الضابط وسوطه المغروس في فتحتها ماداً لسانه الى اعلى مهدداً كلسان افعى سامة ، وعلى خاصرته تدلى مسدس من عيار ثقيل، وراح يرفع أنظاره الى أعلى شيئاً فشيئاً دون ان يجيب .. وكرر الضابط بعصبية :

ـ ماتتكلم ياشيخ النحس !؟.

وأشار الضابط الى أحد أعوانه كي يتفاهم معه .

وكانت الفكرة الاولى التي راودت رأس الشيخ هي انه اذا مادل على حامد ، فانهم سيتبعونه على الفورو ليس لهم من طريق غير هذه الدروب الضيقة التي لا تتسع لمرور السيارات، وعندها سيتلفون الزرع والغرس الذي ظل يعمل من أجله طوال نهاره ، غير انه ما كاد يعاود التفكير في القضية حتى قرر فوراً أن يجيب عن سؤال المترجم :

- انني لم أر أحداً طوال اليوم منذ الصباح حتى هذه الساعة.

لم يكن صوته مرتجفاً او غامضاً ، كان واضحاً وهادئاً كل الهدوء مما أهاب بالضابط ان ينفخ كلمة في وجهه ويمضغ كلمة نابية ربما عنى بها كلمة قذر أو ثعلب او ماشابه ذلك . . وغرس قبضتيه في خاصرته وتلفت حوله بنفاد صبر ، فلم تقع عيناه في المحيط المترامي حوله في المدى البعيد ، إلا على القرية الصغيرة الجاثمة في سفح جبل حرمون . ثم عاد يتفرس في ملامح الشيخ الصخرية بامعان ، وكأنه يحاول قراءة أفكاره (الا نستطيع أن نستخلص من هذا الشيخ البالي اعترافاً ما عن مكان هذا المجرم الذي اقلق راحتنا وأمننا طوال سنوات . . دون ان يجشمنا عناء البحث والتنقيب والتعرض للمتاعب، لقد كان على مرمى أنظارنا حتى نهاية الطريق ثم اختفى في هذه البقعة)

وفطن المترجم الى مايدور في خلد سيده فعاود سؤال الشيخ محاولاً ان يكون معه رقيقاً عطوفاً ان امكن :

ـ اسمع يا .. اسمك الكريم ؟

وأجاب الشيخ ببراءة الطفل :

ـ مخدومك ابراهيم القابوني .

وتنحنح المترجم وكان يرتدي كسيده بنطالا قصيراً وقميصاً من النوع الخاكي ، وقد حجب رأسه بقبعة عريضة الاطراف ، ولفّ عنقه بستارواق من الشمس ثم قال بلهجه ناضحة بالتهذيب حاملة صيغة التهديد في الوقت نفسه :

ـ انت تعلم ان حامد الطحان الملقب بأبي الموت محكوم عليه بالاعدام (وتوقف) .

ان كلمة الاعدام كلمة مخيفة ، يجب ان يجد تعبيراً آخر اقل خطورة فصاح فجأة :

ـ اعني انه خارج على القانون وانت ولا شك لاتحب هؤلاء الذين يعملون على الاساءة الى سمعة البلد ولا تريد ان تعمل على اخفائهم والتستر عليهم خاصة وان السلطات (وأشار برأسه الى الضابط الذي راح ينفخ بنزق شديد) تعمل ماوسعها على حفظ الامن واحلال النظام في بلادنا .. العزيزة .

وتطلع الى الضابط برضى وكأنه يطلعه على مدى التضحية التي يقدمها إليه وعلى اخلاصه وتفانيه في الخدمة .

وبدا أن هذه الصخرة لاتحمل في جوفها ماء ولا يبدو انها تنوي ان تتفتت ، فقد تشعثت من أذني الفلاح شعيرات طويلة غبراء وكأنهـــا تطل برأسها لتسمع بدورها حديث المترجم ، وظهر ان هذه الشعيرات وحدها فهمت كلامـــه اذ انها هزت رؤوسها بوقار عندما لامستها نفخة هواء شديدة الحرارة . وكان الشيخ بعينيه الكابيتين المملوءتين بالغبار قد حاول ان ينظر الى محدثه بأدب وأن يجعله يصدقه حتى ولو بصق في وجهه . فرفع يديه المتورمتين الى أعلى ثم هبط بهما وهو يقول :

ـ ها أنا تحت تصرفكم ماتريدون مني أن افعل هل انا أحب المجرمين ؟.

وردد في نفسه ، المجرمين ! أنا اعلم ان « حامـد » لم يقتل أحداً من أهل بلده بل انه لم يؤذ دجاجة ولم يأخذ في حياته شتلة من شتلاتي او يقطف جوزة من شجرتي فهو ليس مجرماً .

ونظر المترجم الى وجه سيده بارتياح وكأنه يريه انه أحرز بعض الظفر .

كانت السيارتان المصفحتان قد وقفتا على حافة الحقل مباشرة دون ان تطفئا محركيهما ، وقد امتدت من برج كل منهما فوهة مدفع رشاش تلمع تحت لهيب الشمس المحرقة وكانت خوذ الجنود تطل من الابراج لاحداث الاثر اللازم في نفس هذا الرجل المتحجر .

وظن الضابط ان ثغرة قد فتحت في لسان الشيخ فأراد ان ينفذ منها مباشرة فسأل بحدة :

ـ بون ، أي حسناً وكلمات أخرى ، معناها ، دلنا الآن من أين ذهب حامد فقد رأيناه يمر من هنا .

كان الفلاح يعرف بصورة اكيدة أن حامد أو هامد كما يسميه الضابط الفرنسي لن يكون فريسة سهلة لهم او لمصفحاتهم اذ انه ما يكاد يسمع هدير آلاتهم حتى يتسلق الجبل ويختفي في طرفة عين ، وعندئذ سيصبح أهالي القرية عرضة للتنكيل والتعذيب. وهناك قد يقبضون على زوجته آمنة ويستجوبونها وقد يعثرون على ولده يعقوب ويصبون عليه جام حماقتهم وغضبهم . كما سيتعرض كل اهالي القرية الآمنين لأنواع الإهانات . من أجل هذا قرر بكل ما أوتي من خبرة عمره الطويل وتمرسه بأمثال هذه القضايا ان لايدعهم يتجاوزونه خاصة وان الشتلات العطشى ستتلف على أي حال قبل ان ينتهي من فتح الساقية .

وفي خضم أفكاره نسي أن الضابط وجه إليه سؤالا وانه ينتظر الجواب بأسرع وقت ممكن ، ولسبب ماخيل الى (الفرنسي) ان هذا الفلاح الذي يقف امامه ليس بشيطان رجيم وانه يخفي اشياء لاتبين على تجاعيد وجهه الجامد .

وفجأة أحس الشيخ بالسوط ينهال على وجهه . وبسرعة

كان خيط الدم قد وجد مجرى سهلا في تلافيفه فانساب بسهولة حتى وصل الى صدره .. وخشخشت اوراق شجرة الجوز العتيقة على هبة هواء ثم راحت توشوش بعض اسرارها .

وجأرت الشتلات الصغيرة التي بدأت تذبل في وجه الشمس تتعذب على قطرة من ماء . وكان خيط الدم ينساب من وجه الشيخ حتى يصل الى صدره العاري فيتخلل الشعيرات البيض الصفر المتفرقة . وترنمت الشعيرات قليلا فقد أتاها السقي من حيث لاتتوقع ، ورفع الضابط الفرنسي سوطه مرة ثانية وهوى به على الوجه الصامت ، فأحدث مجرى جديداً لدم أحمر قان متدفق .

كان رأس الفلاح قد ارتفع اقصى مايستطيع وشمخ صدره على نحو لم يألفه في عصر شبابه ، وكأنما قومت الضربات انحناءة ظهره وردت اليه ماخسره من سني الحياة الطويلة وجعلت مشاعر عنيفة وحادة ـ استغربها هو نفسه ـ تتفاعل داخل قميصه الازرق الدامي . لم يعد ينبس ببنت شفة . غير أن شفتيه المرتجفتين كانتا تريدان أن تقولا شيئاً .. شيئاً غريباً للغاية وحاسماً في الوقت نفسه .

وجمع الشيخ اطراف قوة ستين سنة من الكدح وحب

الارض والشجر والتراب و .. حامد الطحان . جمع الشيخ هذه القوة الجبارة جميعها في جسد غار نحيل وقذف بها على صدر الضابط الفرنسي ..

وبينما كانت يد ناعمة مرتجفة تعيد المسدس الى نصابه ، كانت شتلة خضراء ذابلة تتفتح شيئاً فشيئاً ، وهي تمتص نجيعاً احمر ممزوجا بالتراب .

★ ★ ★

الدخـــان

كانت حزمة كبيرة من جذور الأشجار تتدحرج على الطريق ، وسط الوادي الصخري العريض ، ترتفع وتنخفض وتمايل يمنة ويسرة تبعاً لوعورة الطريق واعوجاجها ، ثم تهتز وتهتز كأنما يسير تحتها جحش أعرج بليد . وصعدت الحزمة مرتفعاً صغيراً ثم استوى أمامها سهل أحمر . وتوقفت قليلاً كأنما تريد أن تستريح ، وتصاعد من جوفها لهاث ضئيل متقطع ، وارتجفت في أسفلها ساقان نحيفتان يابستان كعصوين ، وتمايلتا في جميع الاتجاهات ، ثم تابعتا السير . كانت القدمان الصغيرتان عاريتين ، وكانتا تتنقلان بسرعة وبخطوات ضيقة ضيقة ، كأنما ترقصان على المسامير . وارتفعت من وسط الحزمة عينان حمراوان ذابلتان ، تضافرت أهدابها الطويلة كأنما عجنت بماء مالح . ثم تصاعدت من أحشائها أنّة واهنة :

ـ يارب .. متى ينتهي الطريق ..؟

وأرادت الفتاة الصغيرة أن تفكر في شيء معين ، غير أنها

وجدت نفسها فجأة تعيش فيه ، فأسلمت نفسها للريح التي أخذت تدفعها دفعاً قوياً باتجاه المخيم .

كانت الريح تكتسح الارض مجنونة ثائرة ، وتضربها بأجنحة ثقيلة مسلحة بملايين الإبر الواخزة الباردة ، التي تخترق الاجساد حتى العظام وتجمد الدماء في العروق ، وتصفع الوجوه صفعاً مؤلماً وكأنما تثأر لنفسها من كل متمرد . وكانت تعول وتزأر وتفتل حول الفتاة وحزمتها ، كأنما تحتال لتصل الى صدرها لتخمد انفاسها قبل أن تصل وتشعل النار ، ومدت الطفلة عينيها وزفرت :

ـ يارب .. لقد هبط الليل ..

كانت الحزمة تجثم فوق ظهرها الهش ، تهصره هصراً وتلصقه لصقاً حاداً بصدرها ، وتضغطه بوحشية نحو الارض حتى تلاشت أنفاسها ، وأصبح من المستحيل امكان التصور بأن تحت هذه الحزمة تتحرك نفس بشرية صغيرة .

وظلت الحزمة تتدحرج .. وترددت قليلاً أمام بقعة سوداء ثم مالبثت أن خاضت مستنقعاً تكسوه طبقة سميكة راحت تتكسر كالزجاج . وارتفعت العينان مرة ثانية وأرسل الصدر زفرة مسحوقة طويلة ..

كانت كل حاسة من حواس الفتاة تعمل منفردة وفق الالم الذي تكابده ، أما عقلها فكان منهمكاً بفكرة سيطرت عليه

كالظلام المتجمد . ومرت الحزمة أمام بناء متهدم ، اتجهت نحو اليسار ، لقد وصلت الى المخيم ..

كان مخيم (خان الشيخ) يتألف من أكوام صغيرة مبعثرة على الارض ، لايمكن اذا ما انفصلت عن بعضها ان توجد لها أسماء ، أما اذا اجتمعت معاً جنباً الى جنب فيمكنها أن تشكل مأوى لأشياء .. كل الاشياء ماعدا الانسان .. غير أنه لسوء الحظ لايعيش داخلها غير نفوس لاجئة ..

ان الكوخ غير الخيمة ، والخيمة غير الزريبة ، والزريبة غير القبر . ويبدو أن تاريخ البشرية لم يشهد مثل هذه الملاجىء في حياته الطويلة ، وإلا لوضع لها اسماً في يوم من الايام . . كانت كل قطعة من هذا المخيم عبارة عن أسمال وصلت ببعضها بطريقة معقدة ، غرست أطرافها بالارض ، وارتفعت أواسطها على عصي مرتجفة فأمكن بذلك استخدامها لدفن الناس أحياء .. أو على الاقل حجب وجوههم - التي ضاعت معالمها - عمن يهرب منها لينساها . وكان مما يزيد في صعوبة تسمية كل قطعة من هذا المخيم ، ان الواحدة منه لاتشبه الأخرى في أي حال ، اللهم إلا أنها تحوي نفوساً انسانية يؤلف بينها شعور واحد ، وتجمعها كارثة معينة ، وقد يدهش الانسان اذا ماعرف أن احدى هذه القطع مؤلفة من مجموعة خيش ، وحصير ، وبساط . وأشياء

أخري ليس لها تاريخ .. ورغم بؤس هـذه الملاجىء وتنافرها وجهل هويتها وعدم الاكتراث بتسميتها ، رغم جميع هذه العلل فإنها تبدو دائماً وأبداً كأنما تقدم لسكانها فضلاً كبيراً وخدمة فائقة الجلال .

وانه لما يدعو الى البكاء والضحك معاً ، ان هذه الجمادات التعيسة الزرية تحس وتشعر بأنها احسن حالاً وأجل قدراً من هذه الارواح الانسانية التي تمضغها في احشائها .

كانت الريح العابثة الساخرة تلعب بالاسمال ، فترفعها وتخفضها وتهزها هزاً عنيفاً حتى تكشف عن سوءاتها تكشف عن الوجوه الشاحبة ذات التقاطيع الجامدة .. عن الاجساد الممددة العارية .. تكشف عن الجوع والمرض والخوف . . كانت الريح تكشف هذه السوءات جميعاً ، فتخجل الاسمال وتنطوي على نفسها .. على الاجساد التي تضمها ، أو تطير مولية هاربة ولو الى الجحيم .. اذ لم يعد في مقدورها ان تستر الى الأبد جرائم الناس ، وتتلوى الرؤوس والاجساد وترتفع الانظار الى سماء لم يعد مايظلها ، ثم تتوسد الارض وتنام ..

صاح رجل من الداخل بصوت ضائع :

ـ فطوم .. فطوم .. أين انت ايتها النجسة ؟

وهز رأسه الى الاعلى والاسفل كحصان يطرد الذباب عن عيونه وغمغم :

ـ انها لاتجيب .. لقد هربت . . هربت . . بقيت وحيداً إذن ..

ولف نفسه بين ساعديه وطوى رأسه بين ركبتيه وراح يرتجف . فيم يفكر أيضاً ؟ لقد كان يتذكر كل شيء مع زوجته ، ولكنها ماتت هذا الصباح .. ماذا بقي له ؟ فيم يفكر أيضاً ؟ لاشيء مما حوله يبعث على الذكرى .

ـ فطوم .. اين الحطب ؟ آه ..: مت من البرد . . لقد ذهبت .. أكلها الوحش ..

ليته يستطيع ان يفعل شيئاً من أجلها .. لابأس . . سوف تدفن مع امها . وفتح الهواء من ورائه كوة كبيرة ، فانسابت الى عظامة برودة تهرؤها ، والتفت الى الخلف واخذ يعالج سدها.

ـ فطوم .. ياكلبة .

وضغط بيده طرف الحصيرة ووضع فوقه حجراً وزفر من اعماقه زفرة مستطيلة .

ـ سأموت ولاشك .

وأحس في خاصرته ضرباً مؤلماً كاد يكسر اضلاعه ، لقد رفع الهواء الحجر والقى به على خاصرته .

ـ فطوم .. آه يارب .. أين ذهبت ؟.

وأخذت الحصيرة ترفرف بأجنحتها والهواء يكتسح الظلام ويهرب الى الداخل وكأنه يلتجيء من عدو يطارده . إن اغلاق الخيمة بصورة تامة امر ضروري جدا ولو ضحى بالنور من أجله فالظلام لايقتل بسرعة ، لقد اخذ يفتك فتكاً ذريعاً هذه الايام ولم يجد سكان المخيم بداً من أن يغـــادروه بالعشرات . . انهم يهربون .. انهم يموتون . والشمس لم تبزغ اشعتها منذ اسبوع : مطر .. هواء .. برد .. ثلج .. انهم يهربون وسأتبعكم ايضاً وهذا الهواء اللعين .؟

ـ فطوم ايتها النجسة .. أين كنت ؟

لقد سقط شيء في الخارج وتسللت الى الداخل كقطة سوداء .

ـ فطوم .. آه يا ابنتي هل وجدت حطباً ؟ حزمة كبيرة ؟ كبيرة جداً ؟ سدي هذه الثقوب لقد تفتت عظامي .. حركي الرماد لايزال يوجد بصيص .. حسناً .. هيا سأساعدك .

ومد يده وتحسس رأس ابنته .

ـ أما زلت تبكين ؟ ما هذا ؟ عرق ؟ انت دافئة اذن . . أنا أموت من البرد .. سيأتي الدفانون هذا المساء .. لقد استراحت . كانت تذيب قلبي بأنينها . انفخي جيداً . . بفمك . . بطرف ثوبك .. هكذا .

وأمسك بغطاء رأسه بكلتا يديه وراح يهزه أمام الحطب .

كان الظلام قد بدأ يسيطر في الخارج وأما في الداخل فلم يطرأ أي تعديل ، الظلام هو الظـــلام .. غير انه بدأ يزداد جموداً . وأحس الرجل ببعض الطمأنينة ، فسحب نفساً طويلا ، وقد بدأ يشم رائحة الدخان .. ونشطت يداه وراحتا تهزان الغطاء بانفعال ، لقد بدأت تشتعل .. وابنته تنفخ بفمها ، والدموع تتساقط من عينيها ، وانفاسها تتلاحق ، لم يتصاعد اللهب بعد ، ولكن الدخان بدأ يتكاثف حسناً .. ان هـــذه بادرة طيبة ، الدخان هو اول النار .

ـ هيا .. انفخي .. انني أساعدك .. هه .. آه يا ابنتي العزيزة ظننت انك هربت مني .. وانت تعلمين انه لم يبق لي غيرك .. لقد ماتت امك .. ايه .. الله رؤوف بها . كانت تشعل النار بنفسها وتدخر لنا الخبز .. هل تعشيت ؟ خذي (ومد يده الى صدره وأخرج .. قطعة يابسة) هذا من تعيين اول البارحة ، لم يأتنا التعيين منذ يومين ، يبدو ان الاعاشة قد نسيتنا أو انها ملت اطعامنا .

وسمع في الظلام قرض خبز .

ـ لقد وعدونا ببطاقة جديدة ولا أدري ماذا ينتظرون ؟ انهم لا يأتون الا متأخرين ؟ هذا هو شباط والشتاء يكاد ينقضي .. مالك صامتة ؟ .(ومد يده الى رأسها) . اما زلت تبكين ؟

ولاتجيب الفتاة .. ولكنها تحمل الحطب وتنفخ وتأكل .. هي تعمل دائماً غير أنها كحيوان الناعورة يدور باستمرار ، يجلب الماء وهو ميت من العطش . وهي منذ أن أفاقت هذا الصباح ورأت أمها الى جانبها ميتة ، اصابتها سكتة . لقد ذرفت دموعاً كثيرة دون أن تدري ماالسبب . . وعلى كل حال لقد بكت كثيراً وعلى نحو متصل ، طوال الطريق وهي عائدة . . والآن تفعل كل شيء ، ولكن دون تفكير .

وبدأ الدخان يتصاعد ، فملأ خياشيم الرجل ، وتسرب الى رأسه ، لم تشتعل النار بعد ، غير أن الطمأنينة تزداد ، ان هذا الدخان يبعث على الأمل ، وهز مروحته بعنف . ان الدخان هو أول النار .

كان طوال النهار وحيداً لايجد من يرجّع صدى شكواه ، امرأته تنتظر الدفن في خيمة بعيدة ، وابنته راحت تحتطب ، وهو لم يجسر على الخروج ، بل لم يقو على ذلك . ان مفاصله تؤلمه الماً شديداً فضلاً عن أنه لايستطيع الوقوف على قدميه ، وقد جرب مراراً ففشل . والعلة الرئيسية ليست في قدميه بل في رأسه ، انه ما إن يستوي واقفاً حتى يحس بغيمة داكنة تحجب عينيه ، وبطنين مدو يعصف برأسه ، فيسقط بسرعة ككيس فارغ ! أهو قلة الغذاء ؟ أم الفراغ . . أم المرض ؟ .

وهو كلما أحس بذلك هرب الى ابنته وذكرياته . . ذكرياته هي كل ما يملكه .

ـ فطوم . . يا ابنتي انفخي النار . .

وتصاعد دخان كثيف . . لقـــد كان له بيت وبقرة وثور ومحراث وأرض كبيرة وأشجار برتقال . كان سعيداً مع الجميع ، حتى مع الثور ، كان يحس في كل مساء عندما يضع له العلف انه ينظر إليه بحنان ، وعندما يخور كان يصغي اليه بوقار وكأنه يناديه . هذا الثور كان وإياه يشقان التراب الاحمر بالمحراث ، بهدوء وبطء ، تحت شمس الخريف الطرية . وفي أواخر الربيع ، عندما كان يمتد أمام ناظريه بساط ذهبي من السنابل ، كان يقف سعيداً سعيداً ، وبيده منجله المسنون ، لقد خلق شيئاً رائعاً . ستمتلىء كوره بالقمح والشعير وستصنع زوجته بيديها أرغفةً كبيرة ، وفي المساء كان يسمع خوار البقرة والثور ، ويلمح زوجته الى جانبها تعصر ضروعها ، والحليب الحار ذو الرغوة الذكية والرائحة المنعشة يملأ السطل . آه . . ما أجمل تلك الايام ! . كان يجد ابنته دائماً الى جانب البئر ، فتستلم منه الثيران لتوردها الماء من البئر . . البئر التي حفرها بيديه ، وساعدته زوجته على بناء حاجزها الحجري .

وهناك المصطبة الحجرية تتربع جانب دار آبائه بوقار وجلال .

ما أعظم هذه الجدة العجوز ! التي ظلت تحتضنه منذ أن كان طفلا وكان يلتجيء الى ظهرها ، وينتصب فوقها ، هازئاً من التيس ذي القرون الطويلة ، ثم يستلقي على برودتها في أمسيات الصيف فتهزه هزاً ناعماً حتى ينام .. هذه المصطبة التي لاتزال تحمل آثار لهوه ورائحة طفولته .

وأحس بقشعريرة هائلة :

ـ فطوم .. فطوم ..

ومديده..ليس هناك سوى الفراغ.

لقد ذهبت ..

وأطل على النار ، لم ير شيئاً ، سوى دخان ، دخان كثيف .. كثيف يطغى على الذكريات . وانحنى على الحطب وأخذ ينفخ ، وازداد الدخان ولم تشتعل النار ، لابأس .. ان الدخان يبعث على الأمل .. الدخان هو أول النار .

وطوى جسده بين ساعديه . وأغرق رأسه في صدره ، وضم ركبتيه الى ذقنه ، واهتز الى أمام والى خلف كدمية من الرصاص . وتمنى لو يختصر جسده بأصغر حجم ممكن . بقط مثلاً ، اذن لاستطاع أن يلتف ببطانيته عشر مرات وبذلك يحس للدفء طعماً . أما الآن ورغم استغنائه عن رأسه وأطرافه فهو لايزال يشعر بهراء ة البرد. ايه .. فليتذكر ..

أين بقرته وأي ذئب سحق عظامها ؟ اين ثوره ؟ في أي مسلخ حطم رأسه ؟ وأي قدم تنتعل جلده الاسود ؟ أين محراثه ؟. هل صنعت منه حربة لامعة أم اعتراه الصدأ في واد من الأودية ؟

والبئر ؟ . ألا تزال تنضح ماء أم نبت في اسفلها الشوك ؟

والبيت ؟. اما زال قائماً أم اضحى طللا من الاطلال ؟

نعم . لقد ترك الباب مفتوحاً ، آملا أن يعود اليه في الغد .. في الغد .. يا لهذا الغد كم تأخر .! ولكن الغد سيأتي لامحالة وسيعيش من اجله .. نعم يجب ان يعيش . ترك ارضه الطيبة ، تنعم بتربتها الدافئة ، والتي يرفرف حبها في اعمق اعماق قلبه ، ترك ترابه الذي كان يزحف بذراته الناعمة الى رأسه ووجهه ، ويغمر حنايا صدره برائحته المفعمة بالحياة . ترك ساعته الفضية الكبيرة ، ذات السلسلة الصفراء ، التي تتوارثها الاسرة أباً عن جـــد ، هذه الساعة التي تحمل تاريخاً لجيل حافل . اما هنا فانه لاشيء .. لاشيء على الاطلاق ، أنه كزوجته ، لافرق بينهما ، هي ميتـة حية ، وهو حي ميت . ولكن من يدري . ؟ لعلها لم تمت . . لعلها إن حملت الى هناك واستنشقت رائحة البيت ستدب فيها الحياة من جديد ؟. لعل قلبهـــا لايزال يخفق بشيء .! أيجب ان تدفن مع ذلك الأمل .؟ آه أيتها الزوجة الطيبة لو انتظرت قليلا،

يوماً آخر على الاقل .. لو لم تسرعي بالرحيل .! ان فرننا هناك لايزال حاراً وأمامه الحطب والطحين .. آه يارفيقة حيـــاتي .! لو انتظرت قليلا ريثما نعود .! موتي هناك ميتة طبيعية ، موتي بيد الله ولأحفر لك قبراً عالياً في ارضنا وسأزورك كل يوم .

وظل يشرد بخياله وسط الدخان .

كان هناك سنبلة في ارضه ، وكان يعيش مع كل حبة يزرعها ، ينبت معها ويمتص من الارض ويتمايل واياهـا مع الانسام طرباً ونشوة : وعندما كان يقف وزوجته ، وسط السنابل كان يشعر بأدق حواسه بأنه تساوى مع الخالقين .

لقد كان سنبلة تغمر رأسها مئات الحبات الذهبية ، سنبلة لاتقوى اعنف العواصف على نزع جذورها من الارض .

كان هناك سمكة في بئره تعيش وتسبح في الماء .

كان ورقة خضراء على رأس شجرته ، وكان شيئاً عالياً في رأس بقرته ، وكنزاً ثميناً في عيني كلبه الأمين .

يالله .! ان هذه الذكريات لاتدفىء عظامه ! ان اسنانه تصطك وعينيه تدمعان . تذكر انه لم يبك على زوجته . يجب ان تشعل النار .

ـ فطوم .. ايه .. لقد ذهبت الى امها ..

وانحنى على الحطب وراح ينفخ ، انه لايشتعل ، وهـــذا الدخان الفظيع يكاد يخنقه ، لابأس النار اولها دخان . سوف تشتعل .

كان الهواء يصفر في الخارج هـــازئاً ، ناشراً اشرعته ، سابحاً في الفضاء والارض ، يضرب كل شيء ، يردد بين لحظة واخرى صراخ طفل عنيد . وتناهت الى اسماعه ضجة قوية ، وسمع عدواً ، وصوت ابنته لأول مرة في ذلك اليوم .

ـ لقد جاؤوا .. جاء الدفانون .

وظل صراخ الطفل الثائر يعلو وسط العاصفة ، كأنه يبحث عن سريره .

★ ★ ★

العـــدم

كنت اسير وحيداً صامتاً شارد الفكر ، منطوياً على نفسي التصق بالحائط وكأني أريد أن أتوارى عن الانظار . وكان الطلاب جميعهم مندفعين من المدرسة عصر ذلك اليوم اندفاعـــاً صاخباً يثرثرون ويصيحون بفرح ونشوة . تُرى ألا يمكنني ان ارافق أحد هؤلاء الطلاب في المدرسة وأتحدث عن شيء ما بهجة وطرب ؟ تُرى عمَ يتحدثون ثم يضحكون . هاهما اثنان يشيران الي ثم يتهامسان . تُرى أيعرفان الى أين أنا ذاهب ؟ أيعلمان انني ذاهب الآن الى المستشفى لأعود أمي التي فقدت دماءها البارحة ؟ لم يخفي أحدهما وجهه وقد كتم ضحكة في حنجرته ؟ لقد قلت لوالدي مراراً ان يشتري لي سترة جديدة فأجاب وهو يهز أختي الرضيعـــة : انظر ياولدي الى اخوتك انهـــم صفر الوجوه ، جائعون ! يجب ان تساعدني انت على اطعامهم بدلا من ان تزيد الطين بلة . وسترتي الآن ليست وسخة ولكنها عتيقة بالية وهي تخفي كل ماتحتها ، ولكنها لم

تستطع ان تستر البنطال الازرق الذي لايزال يثير الطلاب في درس الرياضة ، فيجعلهم ينفجرون ضاحكين ضحكات طويلة ثاقبة كالرصاص . هذا البنطال الذي ضاق ذات يوم على كرش عمي فباعني اياه بثمن بخس ، ومع ذلك لم ينسه ، فقد وقف مرة بين شرذمة من عملائه تجار الجلود ، وقف عالياً ضخماً كالمارد ، وقد باعد مابين قدميه ، وغرس في خاصرته قبضتين داميتين ولوى رأسه مختالا ، وكأنه هو الذي خلقني : وقال انظروا الى هذا البنطال انه اول سروال لبسته في حياتي .

تُرى أيكون هذا البنطال سبب الضحك . ؟ لماذا لايسألني أحد هؤلاء الطلاب سؤالا ؟ كأن يقول لي ما أصعب هذا الدرس !. وهل كتبت وظيفة الغد ؟ أنا اتهيب السؤال .. اخشى ان ينظر إلي بازدراء دون ان يجيب . أو أن يشكوني الى المعلم فيقذفني هذا بمسطرته ثم يستدعيني المدير ويقول لي : اذهب الى البيت واحضر والدك ياقليل التربية . . ان الجميع يضحكون علي في صف هؤلاء الطلاب : المدير والاساتذة وحتى الآذن الذي يعدو دائماً من ورائهم يتصيد القروش التي تسقط من جيوبهم . هاهما طفلان من سني يعدوان وراء كرة ملونة ، لكم تمنيت ان تسقط هذه الكرة في بئر أو بالوعة ، ليقفا حيالها عاجزين يبكيان ، وأذهب لنجدتها واغوص في الوحل ،

وألوث وجهي بماء الشارع حتى اعثر عليهـــا ثم اقف متواضعاً واقدمها اليها بأدب ومنتهى الاخلاص ، عسى بعد هذا كله ان ينظر إلي كمخلوق جيـــد ذي نفع وأن يعرف الجميع انني احبهم وأتمنى لو اخدمهم وأصادقهم .

غير ان المسألة الآن تختلف ، هناك قضية اخرى ، انني ذاهب الى المستشفى ، سأجد هناك بعض السلوى ، أمي مريضة تعاني نزيفاً حاداً ، سأجـدها الآن مستلقية في السرير ، وفوق رأسها كعكة وكأس حليب ، سوف تبتسم لي ، وتسألني عن اخوتي هل اختك الصغيرة بخير . ؟ قل لابيك لا تجوعها . ؟ فهي لا تزال رضيعة ، وقل له ان يتفقد اخوتك في الليل وان يغطيهم بالبساط والجلود اتقاء البرد . ستقدم إلي كأس الحليب ، وسأرفض تناولها باباء فإن الحت فالامر واضح سآخـــذها ، وسأكرعها دفعة واحدة

ورجعت بذاكرتي الى أمس حين عدت من المدرسة .وكانت تخالجني الافـكار المدرسية نفسهـا ، فاستقبلتني عمتي العجوز ، (خير إن شاء الله . فهي لا تزورنا الا في المناسبات الكبيرة ، وفاة احد اخوتي ، او ولادة اخ جديد ولا شيء غير ذلك الا مرض والدتي الخطير الذي كان يداهمها في مناسبات معينة ، اذ يقعدها الفراش ويفقدها النطق والحركة) . وهجمت عمتي علي ، وعانقتني وقبلتني ، ومزقت رأسي رائحة فمها النتن الابخر ، فهي

تصوم دائماً لهذين السببين : الفقر والثواب .. ثم قادتني الى الغرفة الوحيدة التي يتكون منها بيتنا القديم . ووجدت أمي بلا مقدمات فاقدة نصف حياتها ، والى جانبها ، وجد صحن كبير مملوء حتى حافته بدماء سوداء يسبح فيها مخلوق لم يتكون بعد ، تتلوى حوله ، امعاء واشياء اخرى يصعب معرفتها ، واشارت أمي بيدها فهرعت اليها عمتي ، وكشفت عنها الغطاء ثم سحبت من تحتها خروقا كبيرة تقطر دما . كانت تقوم بعملها هذا بنشاط وسرور ، وهي تسبح بحمد الله وتتوسل اليه بكلمات غير مفهومة وهمس صادر من القلب . وكان والدي منزوياً في ركن الغرفة ملتفا بعباءته حتى صلعته ، لا يظهر منه غير أنف كبير وشاربين أشعثين حرقهما الدخان . وكانت تصدر من جوف عباءته تأوهات وتنهدات مصحوبة بزمجرة تنم عن الهم والقلق . والتفتت اليه عمتي وهي تزاول مهمتها دون تأفف : (اطمئن يا أخي سوف ينقطع النزيف ، عما قليل غير انها بحاجة الى غذاء لتعويض الدم النازف : حليب ومرق لحم) ويزفر ابي زفرة عنيفة فيتصاعد البخار من جوف عباءته ويجيب بصوت اقرب الى البكاء .

— يا أختي اني غير مشفق عليها ، انها تستحق ذلك قلت لها مرارا لا تتعبي نفسك وأنت في شهرك الاخير . ولكني اخاف على هؤلاء الاطفال من يعنى بهم ؟ من يطعمهم ؟ .. لا يوجد من يطبخ لهم لقمة مجدرة أو ملعقة شوربا ، كلهم اطفال صغار .

وتجيب عمتي — والله يا أخي ، ان هذا كله دم فاسد ، سوف يفرجها ربنا ، ولن ينسى هؤلاء الاطفال فهو الذي خلقهم.

وتهتز العباءة قليلا وكأنها لا تؤمن بمـــا تسمع ، كان أخوتي الستة ، متناثرين في أرض الغرفة الضيقة ، كقطع أثاث عتيقة وبالية . صامتين شاردين لا يفهمون ما يدور حولهم .وكانهم ينتظرون اللحظة المناسبة ليطلقوا فجأة اصواتهم معولين صارخين .

وطرق الباب في تلك اللحظة ، ودخل أخي الاكبر بطربوشه الاسود وقنبازه الحريري وقال بتهيب :

— لقد اتيت بالعربة يا أبي .

ولم ينتظر الاجابة بل تطلع الي بلوم آمرا :

— متى حضرت يا ولد .؟ لقد قمت بالاعمال كلها وحدي .. اذك غير نافع لغير الطعام والنوم قم .. قم ارم هـذا الدم .. أعمى ، الا تري امك تموت .؟.

وقال والدي من جوف عباءته :

— هل شارطت العربجي على الأجرة ؟

فأجاب دون ان ينظر الى مصدر الصوت ..

— بعد الف جهد لم يرض باقل من ليرة ؟

ورد والدي بصوت جديد مستنكرا — ليرة سورية .؟ يا له من سارق ، كافر ، .! قاطع طريق .! هل عرف ان أمك تموت فأراد ان يستغلنا .

ثم سعل بقوة ، وسمع صوت اصطكاك اسنانه وهو يبصق في اتجاه مجهول . واستأنف :

— هؤلاء الكفار .. الم يبق اسلام بهـــذا البلد .؟ ليرة سورية .. الله يلعنهم ويلعن حاجتهم . ثم صمت مفكرا ، وعاد الى القضية التي بدأت تؤرقه فسأل :

ـ الم تسأل غيره .؟ كان يمكنك ان توفر ثلاثين قرشا على اقل تقدير والآن مشي الحال لا .. لا يمكنني ان اعتمد عليكم بشيء .

وحملت أمي الى العربة وركبت معها عمتي وكانت تبدو سعيدة للغاية ، فراحت تصدر تعليماتها بحرارة الى السائق والى ابي والي.

ـ سق على مهلك .. انت الحقنا الى المستشفى اغلق البـاب جيداً ، أنت ألا تسمع ؟. احذر رأسها . لا ، هكذا..

وسارت العربة يجرها حصانان قويان. وتبعثر اخوتي على طول الطريق من عتبة الباب حتى رأس الحارة ، وقد انستهم هذه الحادثة ان ينتعلوا احذيتهم فوقفوا حفاة مقرورين ، وكأنهم قطع البسة ممزقة ، قذف بها صاحبها ، قطعة وراء قطعة ، وهو يعدو الى الشاطىء ليتخلص من حياته الشقيـة . وسألتني اختي التي بدأ الكلام يتفتح على شفتيها الزرقاوين .

ـ ماما ماتت .؟ ماما .

وفي عتبة الغرفة ، كان اخواي التوأمان يجثوان فوق وعاء الدم ويغرسان اصابعهما في بطن هذا المخلوق الغريب .

ـ دادا .. دادا .

هأنذا اصل الى المستشفى طول . النهار يسرع ليختبىء في جوف الليل ، الشمس ادركها الاعياء بعد طول مسير ، وقد طاردتها الغيوم طوال النهار ، فآثرت الاستسلام ، وسقطت منهوكة شاحبة ، وراء الافق والاشجار العارية . ها هي ذي سيارة يفتح تقف امام باب المستشفى ، يفتح بابها الخلفي ويهبط من الدرج شخصان رجل وامرأة تلبس ملاءة سوداء . الرجل في الاعلى والمرأة تحت . يحمل هو قدمين والمرأة تسند كتفين وفي الوسط يتأرجح جسد ذو شعر اشقر طويل يكنس الدرجات بين اقدامها، المرأة تتعثر مرتين برباط ابيض يتدلى من وسط الجسد ، وعينا كانت مفتوحتين دون ان تنظرا الى شيء . المرأة ترفع الغطاء عن وجهها ، كانت صامتة غير ان وجهها كان يعبر عن اشياء مخيفة .. وفجأة زمجرت زمجرة غامضة فطمأنها الرجل :

ـ الله يسترك طولي بالك . في البيت سيتم كل شيء ..

ووصل الركب الى السيارة . فصاحت المرأة بغتة:

ـ يا ولدي .!

ثم ضحكت بصوت عال جداً ، وهمهمت وكشرت عن انيابها. دخل الرجل اولاً الى السيارة وادخل معه القدمين ونصف الجسد ، فتعثرت المرأة بالرباط مرة اخرى فسقط الرأس على الارض وارتطم بالرصيف ، فاشرأبت العينان ثم عادتا الى محجريهما

ولم يبال الجسد بما حدث له . غير انه استقر في المقعد الخلفي بهدوء . وتحركت العربة فجأة تقل اربعة مخلوقات بشرية .. تاركة وراءها فراغا قاتلا .

ومنعتني احدى الممرضات من الدخول ، بحجة انتهاء وقت الزيارات . ورحت اتجول في الحديقة الكبيرة. انظر الى النوافذ العريضة العالية ، هناك ممرضات كثيرات يقفن مثنى وثلاث يلقين نظرة الى الشارع ثم يرجعن . وصلت في تجوالي الى باب كبير كتب عليه (قسم الولادة) لا شك ان أمي هنا .؟ واخذت اراقب النوافذ من جديد . ها هي ذي امرأة تقف هناك وراء سجاف رقيق ، هذه المرأة ليست ممرضة ، انها مريضة ولا شك . كانت تضع منديلا ابيض ، ولم استطع ان اتبين ان لها وجهاً ، هناك بقعتان سوداوان تتوسطان شيئاً لا يمكن التعبير عنه ، اذ لم يكن له شكل .. كان سراباً ، ولم يكن شيئاً على الاطلاق . ظلت المرأة واقفة لا تتحرك ، وخيل الي أنها تنظر الي فترة من الوقت ، كما خيل الي انها ترفع يدها الى الاعلى، لم اتبين بالضبط من المقصود بحركتها هذه ، ومع ذلك التفت الى الخلف ، لم يكن هناك غيري في الحديقة . وتحركت المرأة قليلا فظهر وجهها ، كان صغيراً ملائكياً ، تمنيت لو اتحسسه بيدي لاتأكد من وجوده . وفي تلك اللحظة تقدمت ممرضة ، لها وجه منتفخ تأبطت ساعد المريضة ثم اسدلت السجاف .

ورجعت الى البيت متأخراً . فوجدت اخوتي الصغار يلعبون وجاء والدي في منتصف الليل ، وشرع يوقد النار في المنقل ، وكان ينفخ الفحم والدموع تسيل من عينيه كالسواقي . لم يعتد الدخان ان يؤثر في عينيه . غير انه استطاع هذه المرة . وقال لي وهو يسعل ويشهق :

ـ هل رأيت أمك ..؟

فأجبت : سأراها غداً فقد وصلت اليوم متأخراً .

واجاب والدي دون احتفال :

ـ لا ضرورة الى ذلك يا ولدي فقد ماتت أمك منذ قليل..

★ ★ ★

انا الآن شاب يافع تملأ رأسي الذكريات والاحلام، غير ان ذكرى وحيدة تجعلني اعود طفلا . فابكي بحرقة كلما حاولت استعادتها . ذكرى سجاف النافذة عندما اسدل طاوياً وراءه ذلك الوجه الذي لم استطع ان اتبينه، وجه أمي في لحظاتها الاخيرة ، وبذلك طمست صورتها في ذاكرتي الى الابد ..

الحقد

وقفت الى جوار المخفر ، مستنداً الى شجرة الجوز العتيقة ، بين اصابعي لفافة يابسة كأنما هي محشوة ببرادة الحديد ، تناولت منها نفسا واحدا ، ثم انطفأت فأعدت اشعالها خمس مرات فقط ، لان جلدها سلخ في المرة السادسة واندلقت من جوفها برادة الحديد التي سميت « تبغاً » .

وكنت في ذلك المساء قد نزعت مسدسي من غلافه ووضعته في جيب بنطالي الخلفي ورغم ذلك فقد بدا ثقيلا جداً ، وتشبث بملابسي كأيد خفية تسمرني في الارض لئلا أترنح وقد نزعت المسدس من النطاق لكي اخفف ما استطعت من عبء الصمت الثقيل الذي كان يجثم على الكائنات ، وعلى صدري ، حتى احسست باني اكاد اختنق .

وما دمت بصدد الحديث عن الصمت ، فينبغي علي ان افسر النواحي الملموسة في هذا الشيء الذي يدركه الانسان ولكنه لا يستطيع ان يمسك به ، فالصمت هذا الشيء البسيط جداً ، يستطيع

ان يقتل الانسان بهدوء ، او ان يفقده عقله ، او على الاقل يمكنه ان يثقب اذنيه ويجعله اصمّ ، اصمّ لا يسمع شيئاً البتة .

الصمت هذا الشيء الرهيب المفجع ، انه اشد قسوة من هدير الطائرات ، من انفجارات القنابل ، من دوي الرصاص ، من اي ضجيج آخر ، انه يحمل الانسان على رفع يديه الى اذنيه ليغلقهما باصابعه .

كانت الشمس قد غربت منذ دقائق ، وسحبت وراءها شفقها الدامي ، لتتهادى معه وراء قمة الجبل وقد بدأت التلال من حولي تنشر ظلالها القاتمة وراحت الاشياء التي كانت تتحرك من بعض النواحي تظهر لي ضئيلة صغيرة ثم تختفي شيئاً فشيئاً حتى يطويها الظلام بسرباله الاسود .. ولم أعد اتبين معالم الاشياء فوق التراب الاغبر وخيل اليّ ان صدى نقيق الضفادع يتردد قرب اذني ، ولكن حين حاولت الامساك به افلت بسرعة ، وهكذا لم أعد اسمع او ارى شيئاً البتة .

ان ازيز الناموسة او صرير الجنادب ، او نقيق الضفدع يفعل في احاسيس الجندي الاعاجيب ، ذلك الجندي الذي جرب الصمت وعاش فيه ليالي طويلة . فلا يعجب المرء ان يقرأ رسالة جندي اسهب فيها بوصف صرصور تائه راح يشدو على مقربة منه

في ليلة مظلمة ، او وصف بعوضة منفردة حطت على خده في لحظة من لحظات ترقبه وشجت اسماعه بأزيز وئيد بعد ان تركت على خده ندبة حمراء .

ان هذه الحشرات الصغيرة تملأ نفس الانسان بالحياة .. باسمى ما في الحياة ، من انس ومرح وسعادة ، عندما تتحرك فجأة من حوله ثم تترك اثرا يصل الى اذنه .

لا شك انني اتحدث برهبة وخشوع . وذلك لان للصمت دويا هائلا في الآذان .. دويا ساكناً كالموت ، يجعل الانسان مشدوها ابله ، يتمنى لو يحدث نفسه ليسمع صوته على الاقل ، او ليشعر بأنه حي في هذا الوجود المخيف ، وعندما يخيم الصمت تجمد الكائنات ، حتى اوراق الاشجار يعتريها الشحوب فتبدو كالجذور المدفونة تحت التراب .

بيد ان لهذا الصمت حسنة ، هي انه يجعل الانسان نفسه يجمد ويستسلم للذكريات ، ولا شك ان هذه الصورة القاتمة التي اتحدث بها عن الصمت ، لها علاقة مباشرة بالموضوع الذي كنت افكر فيه ، لقد كنت استسلم لذكرى الحادثة الاخيرة .

هنا في هذا المكان وقفت منذ اسبوع مع الملازم ممدوح .. لم يكن المكان فارغا كما بدا لي الآن ، ولم يكن الصمت يسيطر على كل شيء .. لا لأنني كنت اقف مع انسان آخر .. ولكن

لان رفيقي كان الملازم ممدوح والآن انني على تمام اليقين بانه ليس هناك انسان آخر غير الملازم ممدوح الذي كنت اقف الى جانبه يمكنه ان يطرد هذا الصمت المقيت .

انني لا ادري بالضبط لماذا اعتقد ذلك ..غير اني واثق كل الثقة بان الملازم ممدوح هو الوحيد الذي يستطيع ان يسكت هذا الصمت .. لا شك ان حكمي هذا هو نتيجة فراغ مخيف خلفه شيء ما في نفسي .. قد يكون ذلك وقد لا يكون غير ان الحقيقة ان الملازم ممدوح كان انسانا غير عادي . ودليل ذلك انه استشهد في اليوم التالي .. لقد استشهد بعد ان قبر الصمت ودفنه تحت سيل من وابل الصياح والرصاص .

فراغ مخيف في نفسي ، خلفه فقدان صديقي الملازم ممدوح.. ولكن من لي بامـلاء هـذا الفراغ .. انني غير حزين .. لانني اتذكر الآن قصة استشهاده فأنا اعلم ان الملازم ممدوح لم يمت بصمت ، وذلك ما يعزيني .. انه لم يمت كما يموت اي انسان.. ومن اجل هذا اقول لجميع الناس ان ممدوح لم يمت .. لقـــد ذهب .. نعم .. ولكن الى اين ! .. لا أدري انه لا يقف الآن الى جواري ليحارب الصمت .. ولكن لا يعني ذلك انه مات .. لأنه لم يقض كما يقضي كل انسان .

ان رصاصة واحدة في الصـدر تكفي لقتل الانسان العـادي الذي نعرفه ، اما ان يقاتل الانسان ويظل يقاتل ويصرخ ويدفع

رجاله الى الهجوم حتى يدحر آخر فلول العدو وذلك بعد ان يصاب برشة كاملة في صدره ، ان هذا ليس بالعمل الذي يستطيع احد ان يقوم بمثله ، فصدر الانسان العادي مركب من عظام ولحم ودم واشياء اخرى مجهولة لدي ، بلى ، من هذا كله كان يتألف صدر الملازم ممدوح .. بالاضافة الى العظام واللحم والدم ، ان صدر الانسان العادي يخرقه الرصاص وينفذ منه الى القلب فيموت صاحبه وينتهي امره .. اما الانسان الآخر .. الانسان الذي هو الملازم ممدوح من جبلته ، فان الرصاص وشظايا القنابل وكل ما من شأنه ان يعطل حركة القلب ، لم تستطع ان تنفذ منه . تُرى ما السبب ؟ .. تراني اتحدث عن اشياء غير مألوفة لاقاوم الصمت ؟ ام انني احدث نفسي بصوت مرتفع لاسليها واشغلها عن الفراغ المحيط بها من كل جانب ؟ .. لا أظن ذلك ، اني اتكلم عن حقيقة موجودة ومعروفة .

فالملازم ممدوح عندما سمع اطلاق الرصاص من مخفره الامامي ، وكان الظلام دامسا والهواء عاصفا ، والمطر ينهمر ، افرغ جيوبه من محتوياتها ولم يترك فيها غير صورة صغيرة لابنته الوحيدة .. ابنته الصغيرة هي كل ما حققه في حياته بعد سبع وعشرين من السنين قضاها باحثا عن الحب والسعادة والاستقرار .

لقد وضع صورة ابنته في جيب سترته اليمنى ، وقاد فصيلة

من الجنود وتقدم بها نحو مصدر الضجة التي انبعثت من احد مخافره الامامية .

لقد قال لي ابوه ، ذلك الرجل البسيط الطيب : « بكيت في حياتي مرات عديدة من اجل ولدي ممدوح ، بكيت عندما رأيته يبحث عن اشيائه الضائعة فلا يجدها ، اما عندما رأيته مسجى بالنعش .. فلم ابك ولم تطرف لي شعرة في جفن ، بل كدت ابتسم ، ان لم اكن قد ابتسمت فعلا ، وذلك لأني وجدت ولدي ممدوح يضحك .. نعم .. وجدته سعيدا وكان املي في الحياة ان اراه كذلك » .

ولكن فيم طفرت هذه الطفرة ؟ يبدو ان افكاري تدور في دوامة من الحوادث ، فلأعد .. عندما قاد الملازم ممدوح فصيلته في الظلام نحو مصدر الصوت ، تلمس مرات عديدة صدره ، مكان الصورة وضغط عليها باصابعه ، وبذلك اضاف الى قلبه شيئاً جديداً .. اضاف الى قلبه درعا واقية هي الحب .. لم يكن افراد الفصيلة قد تقدموا اكثر من مائتين من الامتار عندما انصب عليهم وابل من الرصاص .. في تلك اللحظة صرخ الملازم ممدوح صرخة مدوية .. صرخه عجيبة ، جعلت جميع افراد الفصيلة يستعيدون وعيهم بطرفة عين ، بحيث لم يعد للمفاجأة اللئيمة ذلك الاثر الذي

كان ينتظره الاعـداء ، وانقلبت فكرة الاغتيـال الخسيس الى معركة حقيقية .

لقد كانت صرخة الملازم ممدوح في الظلام ايعازا موجها الى كل جندي من جنود فصيلته .. ايعازا لم يفهموا منه كلمةواحدة ، لقد ظن كل جندي من جنود الفصيلة ان الايعـاز موجه اليه ، فاستعاد رباطه جأشه ولقم سلاحه ، وراح يطلق الرصاص بثبات نحو فلول العدو التيراحت تتراقص في الظلام..اما الكلمة الحقيقية التي هتف بها الملازم ممدوح فهي (لقد قتلوا ابنتي) .

وهكذا كان الحقد .. انه عنصر اضيف الى تركيب صـدر الملازم ممدوح .. وبهذا ارتفـع الى مستوى انسان جديد ، لقـد كانت فكرة العدو هي اغتيال الملازم ممدوح مع فصيلته ، وفعلا كانت الرشة الاولى موجهة الى صدره .. فسقط .. ورفع يـده اليمنى وتلمس جبينه واخرج الصورة .. فأحس من بين اصابعه بأن الصورة مثقوبة في مكان جبين الصغيرة التي تبعثرت على جانبه خصلة مشعثة من الشعر .. وكان سائل حار يتدفق من مـكان الجيب فصرخ بكل ما اوتي من قوة « لقـــد قتلوا ابنتي » . وتركزت في رأسه هذه الفكرة: انهم قتلوا ابنتيولكنهم لميقتلوني، قد تكون ابنتي ماتت ، ولكنني انا لم امت ، انا لا ازال حيا ،

ويجب ان انتقم لها .. لهذه البنت الصغيرة .. هذه البنت هي ثمرة سبعة وعشرين عاما من البحث عن الحب والسعادة والاستقرار .. لقد اخذوا سعادتي .. اخذوا حبي .. اخذوا كل شيء .

وحمل الملازم ممدوح صدره الثقيل الذي ضم بين ضلوعه رشة من الرصاص ، وزحف باتجاه المغتالين صائحا بجنوده : الى الامام .

وكانت معركة اسمها معركة طبريا ..

★ ★ ★

رسالة غير مضمونة

لعق غطاء المظروف بلسانه ، وأدخل اصبعه في داخله يتحسس شيئاً وهو يمصّ شفتيه باطمئنان . ولعق الغطاء مرة ثانية ، وبعد أن أحكم لصقه وضعه على حاجز الدكان الخشبي ، وأهوى عليه بقبضة يده النحيلة . وحين تأكد من أنه أغلق جيداً تناول قلماً من جيب سترته الداخلية وخط عليه جملة ثم توقف ، ورفع القلم الى عينيه ثم ضغط على دافع الحبر ، فسقطت على وجه المظروف نقطة كبيرة ، وتابع الكتابة .

ـ حمص ، قرية الزيوانة ، بيت محمد عبد القادر محمد .

ورفع الغلاف الى شفتيه وراح ينفخ فيه حتى جف الحبر فقلبه ، وخط من جديد :

ـ المرسل احمد محمد عبد القادر محمد مدرسة زياد بن أبيه .

وتأمل البقعة الزرقاء التي تربع على وجه المظروف بأسف كبير ، وهمّ أن يفعل شيئاً كأن يغيره من أساسه غير أنه

توقف عند فكرة لصق الطابع من جديد ، فنفى الفكرة بهزة طفيفة من رأسه . وتتطلع الى البائع بتهيب وسأله :

ـ بالله أين صندوق البريد ؟!

ولم يسمع البائع السؤال لأول وهلة ولكنه أجاب بعد قليل :

ـ صندوق البريد .. في الشارع الأيمن على يدك اليسرى .

وهز المعلم رأسه وتمتم : شكراً .

وهم بالسير فاستوقفه صوت البائع :

ـ استاذ .. ثمن الطابع اذا تريد ..

وكان المعلم قد نسي فعلاً في غمرة انشغاله أن ينقد البائع ثمن طابع البريد . فجمد في مكانه لحظة وقد أحس كأنه ارتكب عملاً شائناً ، كالسرقة ، او الاحتيال أو ماأشبه ذلك ، وتقدم من البائع وعلى وجهه ابتسامة مذنبة وأراد أن يعتذر فتلون وجهه وأدخل يده في جيب بنطاله الخلفي وسحب منه بصعوبة ورقة مالية . ومدها الى البائع :

ـ هل لديك صرف هذه الورقة ؟.

وتناول البائع الورقة وقلبها على وجهها وتأمل زاويتها ببعض الاهتمام ثم ارتسمت على شفتيه ابتسامة ذات معنى . وأعاد الورقة الى صاحبها قائلاً :

ـ أعطني غيرها من فضلك ..

وأجاب المعلم بصوت حاول ان يكسبه صفة التحدي :

ـ هذه ورقة من فئة خمس الليرات .

وأجاب البائع بلهجة العارف الخبير :

ـ هي كذلك ، ولكنها قديمة .. انظر الى التاريخ .

وتأمل الشاب التاريخ بيد مرتجفة . وسرت الرجفة الى صوته .

ـ ألا تمشي ؟.

وعقّب البائع بخبث :

ـ ولا تزحف ..

وبدا المعلم وكأنه أصيب بالخبل ، وقد دل صوته على ذلك .

ـ ولكني قبضتها منذ ساعة .. من بائع متجول .

وأدرك البائع انه تجاه رجل حلت به مصيبة لايستهان بها فأراد أن يواسيه ، فقال محتداً :

ـ أين هذا ابن الحرام . ؟

ولم تشف هذه الكلمة غليل الشاب لحظة ، ثم تحسس المظروف في جيب سترته الجانبية فاطمأن عليه ، ومد يده الى جيب بنطاله وأخرج منه ورقة جديدة وفيما كان يسترد البقية من البائع راح يخالجه الشك في صحة قوله . لعله رفض الورقة لأنها بالية ، أو أنه لايحمل بقيتها .

وعاد يسأل وهو خائف سلفاً من الاجابة .

ـ ألا يصرف البنك نقوداً مهترئة ؟.

فرد البائع مستنكراً :

ـ مهترئة . . قلت لك قديمة ألا تصدق . . أين كنت منـــذ سنة ؟ ألم تقرأ اعلانات وزارة المالية . .

وسار المعلم نحو صندوق البريد ، وهو يقلب الورقـــة بين أصابعه والحزن يفيض من عينيه وزوايا فمـه . وراح يحسب كم تبقى من راتبه . وقفز قلبه من بين ضلوعه ، ترى كيف حال الاوراق المالية التي أودعهـــا الرسالة .؟ وتحسس المظروف مرة أخرى . ثم توقف فجأة وتطلع الى الخلف أمام الدكان وهو يحـــدث نفسه تراه أسقط شيئاً . . وحسب : مائة في الظرف وخمس في يده ومد يده الى مؤخرة بنطاله . .

ودفع بالرسالة الى صندوق البريد ، وقذفها بقوة فارتد الغطاء ، وامتدت يده بصورة عفوية الى أسفل الصنـدوق . ثم استدار وقفل راجعاً ، يمشي على غير هدى . ترى هل يعثر على البـائع الذي غرر به .؟

وتصوره بلحيته النامية ، وطاقيته العتيقة وسرواله الذي يكنس الارض بين قدميه ، وعندما وصل بتصوراته الى سحنته القـاتمة وصوته الفظ شعر بالضعف والتخاذل . وحدث نفسه : واذا رفض ان يردها . ؟ من السهل أن يقول له إنه لايعرفـه وإن

آلاف الزبائن يشترون منه كل يوم ثم يختم مناقشته بكلمة نابية يصيح بعدها :

ـ سكري يابرتقال .. سكري .

وماذا قال بائع الطوابع .؟ اعلان من وزارة المالية .. أين ستتاح لي فرصة قراءته .. أمام اعمدة الترام .؟ وقفزت الى رأسه في تلك اللحظة ذكرى مرعبة ، ذلك أنه وقف مرة أمام احد الأعمدة ليقرأ اعلان نعي احدى المعلمات من معارفه ، واذا ببوق سيارة مسرعة يدوي في أذنيه ، فقفز كالأرنب المذعور ، وظلت السيارة منطلقة فوق المكان الذي يقف فيه ، وتلمس بعدها جسده بشك كبير .ترى أما زلت حياً أرزق ؟

أما ذلك البائع المحتال فسوف يعثر عليه ، ثم يرجوه ويتوسل اليه ، ويقنعه منطقياً بأنه نقده خمس ليرات قديمة عندما استرد منه بقية ثمن البرتقال الذي ابتاعه . اما اذا رفض فسيصيح به على مسمع من الناس (ايها اللص ! ايها المحتال !) وسيجتمع المارون والشرطة ، فيقودونه الى المخفر .. ولكن .. ترى هل سيقف البائع صامتاً مكتوف اليدين .. ما أكرمه ان مد يده الى جيب سرواله العريض واعطاه بدلاً منها ورقة جديدة ، عندها ستنتهي القضية . ثم عاد يتصوره يصيح بصوته الخشن :

ـ سكري يابرتقال .

ويداه الكبيرتان الخشنتان تدفعان العربة المكتظة ، ثم تتلقف الاوزان الحديدية المصفوفة امامه . ماذا يحدث لو قذفه بأحدها.. يالها من مهزلة !. لصوص يسرقون الناس على قارعة الطريق .! وهم اقوياء بأجسادهم والسنتهم ، لايخجلون ولابرف لهم جفن اما هو فضعيف بجسمه ولسانه .. لم خلقه الله ضعيفاً هكذا حتى انه لايستطيع ان يدافع عن ابسط حق من حقوقه .؟ وارتعش حين وصل بتفكيره الى الله ، وأوقف افكاره عند هذا الحد.

وأحس باصابعه المتشنجة تصارع الورقة البالية ، وتمضغها دون هوادة . فأخرجها ، ومهدها قليلا ، ثم طواها وأودعها جيبه الداخلي بعناية .

ها هو ذا يعبر شارع صلاح الدين دون ان يشعر . ووجد نفسه يسير بالقرب من المكان الذي كان يقف فيه بائع البرتقال أمس . فتنفس الصعداء ، بعد ان كان قد حبس انفاسه مدة طويلة ، وتوقف امام بائع صحف،ويداه في جيبه . وتصور سحنة غريمه البغيضة ، وتخيل نفسه في ليلة مظلمة قد اقفر فيها الشارع ما خلا البائع الذي كان يعد غلته ، مغفلا كل ماحوله ، وانه سار اليه من الخلف وامسك به من عنقه ، بأصابع فولاذية ، وجذبه بقوة وعنف الى الوراء ، وان البائع فقد توازنه ، وتهاوى بين اقدامه ، فانهال عليه لكما وركلا وتمزيقاً ، وان

البائع الفظ جعل يبكي .. يبكي كطفل صغير ويئن ويتوسل اليه وانه وقف هو فوق رأسه مكتوف اليدين ، ضاحكا على ذله وضعفه ، ثم بصق في وجهه ، وتركه وحيداً دون أن يعبأ بصراخه الذي يفتت الاكباد ..

ويبدو ان المعلم كان يقرأ الجريدة وهو يسبح في تخيلاته بدليل أنه قرأ العنوان التالي في جريدة دمشق المساء (وحش سوق النسوان يساق الى العدالة ، النيابة العامة تطلب اعدام الوحش).

وتأمل في صورة القاتل بعين خابية ، فوجده بشراً من فصيلته . شاب عادي ، وربما يكون معلم مدرسة مثله تماماً . انه ليس وحشاً كما تزعم الجريدة ، ومع ذلك فسيشنق ، وأحس بغتة بالقشعريرة تسري في اوصاله ، وبالضعف يتسلل الى انفاسه ، وبحبل المشنقة يضغط على بلعومه ، فامتدت اصابعه دون وعي الى رقبته تحل العقدة المنكمشة . ستكتب عنه الصحف : (وحش الليل ، جريمة الموسم ، معلم مدرسة يغتال بائع برتقال) وماذا سيكون رد الفعل عند امه المسكينة ..؟ ستفقده . وستبكي ومن أين ستجلب المال بعد ذلك .؟ وأخته ستبيع نفسها الى أي شيطان ، ليس لهما من احد سواه . ولكنه عاد يطمئن نفسه عندما وصل الى هذا الحد (مائة ليرة سورية ستصلها غداً صباحاً) .. ولكن ترى ماذا لو ضاعت النقود .؟ وأحس بغتة

بفؤاده يغور في الأرض ، ماذا لو ضاعت الرسالة كلها . ؟ اليس من المحتمل ان تفقد .؟ لقد أرسلت النقود في رسالة عادية . . رسالة غير مضمونة . ولكن لم هذا الخوف كله .؟ هل حشوتها ذهباً .. ولكن نعم مائة ليرة .؟ انها اغلى من الذهب .

ووجد نفسه يسرع الى بائع الطوابع ، كان طيباً حياله ، ألم ينعت بائع البرتقال باللص .؟ لاشك انه رجل غيور ..

وزف اليه الرجل بشرى جديدة لاتقل عن سابقتها اثارة .

ـ هل وضعت الرسالة في صندوق البريد .؟ أظن ، لم يعد بالامكان استردادها ، دعني اهمس باذنك . انها ضاعت .. لا .. لا تفتح عينيك هكذا .. لقد حضر الساعي منذ قليل بكيسه المكتظ وطلب باكيت فيليب موريس نعم .. كان يبدو كمن هبطت عليه ثروة مفاجئة . انه لم يربح ورقة يا نصيب كما أعلم .. كان يأتيني كل مساء ويشتري خمس سيكارات ريجي اما الآن .! دعني أهمس بأذنك ان لسعاة البريد حاسة لمس غريبة وأن لأصابعهم انوفاً كبيرة ، تشم رائحة الفرنك على بعد مائة خطوة . يكفي أن يدس احدهم يده في صندوق البريد ، ليحسب الثروة التي سيملكها .. أفي رسالة عادية .. ترسل هذا المبلغ .. فظاعة .!

وعلى أي حال ، هه سأساعدك اذهب الى ادارة البريد ، هل تعرفها .؟

ووصل المعـــلم الى دائرة البريد ، ووقف يزدرد انفاسه . نوافذ كثيرة مفتوحة امامه ووراء كل نافذة وجـــه جديد ، الحوالات ، الامانات ، البريد الجوي ، الودائع .. الى أي نافذة يذهب .؟ وتقدم الى اقرب نافذة امامه . وكان وراءها شاب صغير وبدا منهمكا في تصفح صورة عارية ، وحزمة من شعره تغطي نصف جبينه الأيسر ، ووصلت الى أذني الشاب من بعيد هذه الكلمات .

ـ ياسيد ، لقد أرسلت رسالة عادية و . . .

ورفع الموظف الصغير رأسه الى الخلف ، فقفزت حزمـــة الشعر في الهواء ثم حطت في مكانها على جبينه .

ـ ماذا .؟ رسالة . ؟ هنا الودائع ياأستاذ . . ورجع يتصفح صورة فتاة تقفز الى البحر .

واقترب المعلم من النافذة الثانية ، كان وراءهـا شاب نحيل جداً يعبث بساعته اليدوية وتناهت الى أسماعه شكوى .

ـ لقد أرسلت رسالة عادية وأريد أن . .

ورفع الموظف يده وكأنه يطرد ذبابة . . واستمرت الشكوى :

ـ أريد أن أجعلها مسجلة .

وطرد الموظف الذبابة مرة ثانية ، وعادت الذبابة تطن :

ـ لقد أخطأت ، وضعت فيها نقوداً .

وعندها انفجر وراء النافذة صوت كالفتاشة .

ـ قلت لك هنا ليست الرسائل . .

وسقط على الارض يبحث عن نابض الساعة الذي أفلت . وشعر المعلم بأنه يود أن يبكي على الاقل ليبعث في نفسه بعض الراحة . . ودخل ممراً طويلاً ، يجب عليه أن يطرق الأبواب .. في الغرفة الأولى قيل له ان يذهب الى قسم التسجيل وفي الثانية أمر أن يذهب الى قسم الفرز ، ودخل غرفة صغيرة انها قسم السوق . كان فيها موظفون بألبستهم الرمادية ، واقفين على أهبة عمل ما ، وقد اشتركوا في مناقشة حامية ، وصوت أحدهم يطغى تقريباً على أصوات المجموع ، كان يصيح (نعم . . أسوة ببقية الموظفين . . نعم نحن خلق الله أيضاً . . الحقوق . . أين الضمان اذن .؟) وخرج الجميع دفعة واحدة ، وبقي واحد فقط فتعلق المعلم بكتفه (لي رسالة و . .) فأجاب وهو يخرج بدوره: أنا الآذن ياسيدي . . وبقي المعلم وحيداً ، والاصوات تطن في أذنيه . وشبك يديه وراء ظهره ، وهز كتفيه وهم بالخروج ولكن شيئاً ما جلب انتباهه ، سلة كبيرة مملوءة بأوراق ممزقة، واقترب منها محاذراً ، وفتح عينيه . . وتقدم أيضاً . . ثم انحنى وحدق ليتأكد جيداً مما يرى ، ثم فغر فمه وهو في غاية الفزع.. كان هناك غلاف مفتوح على خده دمعة زرقاء .

المجاهدون

منذ اكثر من عشر سنوات واهالي القرى العربية على الحدود الفلسطينية يعيشون في جو من النار والدخان ، لا يسكتون على عدوان ويقاومون الرصاص بالرصاص، ويصمدون للنوايا العدوانية باليقظة والحذر . دون ان يفت ذلك من عضدهم بل يجعلهم على الدوام يعيشون مؤمنين باصرار بانهم لن يتخلوا عن شبر واحد من الارض.

★ ★ ★

رفع المجاهد محمد عبد الله السليمان رأسه من جوف خندقه، واشرف بعينيه السوداوين الحادتين على سطح بحيرة الحولة . لقد اصبح كل شيء هادئا ، والماء راكدا ركودا تاما ، لا يعكر صفاءه غير خط ابيض متعرج ، يصل ما بين مستعمرة زبيدة والدردارة اليهوديتين ، هذا الخط الذي رسمه من قبل زورق حربي يقل ثلة من الجنود الى المستعمرة الثانية .

وبالقرب من الشاطىء كانت وزتان تغطسان في الماء ، ثم ترفعان رأسيهما لتبتلعا السمك الذي اقتنصتاه من الوحل وكانت

الشمس تثبت اشعتها المائلة على سطح البحيرة ، تعكس النور على صفحتها وتفرشه في الاتجاه الشرقي حتى يشمل كل شيء .

وعلى بعد قليل من الوزتين كان ثلاثة اطفال عراة لوحت الشمس اجسادهم ، يغطسون في الماء الضحل غائصين برؤوسهم الى الاسفل مقلدين حركة الاوز . ومن بعيد ، عبر بستان الخوري ، كان صوت محرك يهدر باستمرار ، حتى ليكاد صوته يضحي قطعة لا تتجزأ من الصمت المطبق .

وارخى محمد عبد الله السليمان رأسه قليلا ، ولكز أخاه قاسم عبد الله السليمان وكان مستلقياً الى جواره يعانق بندقية جديدة .

ـ قاسم !. مارأيك بأكلة لحم ؟.

وتململ قاسم في خندقه الرطب ، وكانما قطع عليه سلسلة احلامه الهنيئة ، وغمغم بصوت يخنقه الضجر :

ـ لحم اولاد ؟.

وضحك محمد ساخراً ولم يجب . غير انه اسند بندقيته الى كتفه وضغط الزناد .. وافترش صوت الانطلاق البحيرة على سمعتها ثم تجاوزها غربا فاصطدم بالجبل المقابل ، وابتلعته الشمس الغاربة بعد ان احدث صوتا يشبه ملايين الاجنحة المصفقة . وصرخ الاطفال وانقضوا كالنسور على الاوزة التي فقدت توازنها ، وهوت مصعوقة

مرتجفة ، ولم يطل محمد النظر الى البحيرة ، بل اخرج حبلاً من جيب سرواله وراح يدخله في فوهة البندقية لينظفها .

وعاد الهدوء يرين على المنطقة بأسرها مشوباً بالتحفز والدهش. فقد توقفت مواشي قرية جيلبينة فترة عن الاجترار وحركت اذنابها حركتين ثم ما لبثت ان عاودت عملها بهدوء . ولمواشي هذه القرية قصة محزنة ، الفتها على مر الايام ، وهي انه كثيراً ما يقطع عليها حبل الصمت ، لتفاجأ ببضع قنابل هاون او قذائف مدفعية ، تسقط بينها فجأة دون مقدمات فيرتمي بعضها في ارضه ، ويتبعد بعضها الآخر قليلا عن المكان ليعاود الاجترار بهدوء . ولعل انفجار الطلقة في هذا المساء جعلها تهيىء نفسها لاتخاذ اجراء ما ، فقد الفت هذه العادة واصبحت اكثر حذرا ، خاصة في الايام الاخيرة .. ولعل احجار القرية السوداء نفسها تشارك الحيوانات نفس المصيبة ، غير ان سوء حظها يجعلها غير قادرة على اتخاذ اي اجراء . اللهم الا انها تتساقط في مكانها دونما ضجة . اما سكان القرية فيمكن القول انهم الوحيدون الذين اصبحوا يتلقون الامر دون مبالاة ، وذلك لانهم آنسوا في انفسهم القدرة على النجاة دون اتخاذ اي احتياط .

فمنذ اكثر من عشر سنوات والقرى العربية على الحدود

الفلسطينية تعاني من المداعبات المماثلة ، وقد تصاب احيانا امرأة مسنة من جراء هذا العدوان المستمر ـ ولنسم هذه القنابل باسمها الحقيقي ـ إلا أن ذلك لم يفت في عضد أهاليها ، بل جعلهم على الدوام يعيشون في جو من الحقد ، مصرين على ان لا يتخلوا عن شبر واحد من الارض.

وفي مساء احد الايام كانت فئة من مقاومي القرية تتسلل الى الخنادق المحفورة في التخوم . صاح شيخ بالاخوين عبد الله السليمان :

ـ مساكم الله بالخير .

فرد الاخوان :

ـ مساك الله بالخير .. شو الخبر ؟ .

فأجاب الشيخ وهو يتجشأ مالئا جو الخندق برائحة البصل :

ـ جاءت الاوامر باحتلال الخنادق .

وكان الشيخ قائداً للمقاومة الشعبية في القرية .. في حوالي الستين ، كث الشاربين ، خفيف اللحية ، برزت قبضة من الشعر من تحت عقاله ، تقلد بندقيته على طريقة الجنود ، وانتعل بسطارا عسكريا من لون التراب ، وكان لون شاربيه ولحيته بلون الحنطة الناضجة . وراح يوزع رجاله على اليمين واليسار والوسط ، ملقيا بعض الاوامر والتوجيهات المناسبة . ويقال إن جميع رجاله يهابونه ويحترمونه ، لا كواجب من مرؤوس تجاه رئيس ، وهو الشيء المتعارف عليه عسكريا ، ولكنه نال هذه المنحة عن جـــدارة

واستحقاق . فأبو المحاميد ـ وهذا هو اسمه ـ اشتهر بارادة تفل الحديد ، وآخر حادثة له منذ اسبوع هي انه بينما كان يحرث توغل في الارض العربية غربا حتى آخرها ، وهناك اصطدمت سكة محراثه بسلاسل التراكتور اليهودي ، فتوقف المحراث والتراكتور معا فضحك اليهودي وقال لابي المحاميد شيئاً في لهجة ساخرة ويفسر ابو المحاميد ما قاله اليهودي بما معناه :

ـ ابتعد او ادهسك انت وثورك ومحراثك تحت التراكتور .

ويقول ابو المحاميد إنه اجابه بسخرية مماثلة :

ـ انت وتراكتورك ودولتك ما بتعلق على صرمايتي .

وخبط قدمه على الارض مشيراً الى حذائه وطبعا لم يسمع احد من الناس هذا الحوار ، غير انه شوهد من قبل جميع سكان القرية ، يقف فترة من الوقت في مكانه ، حتى ان المقاومين اتخذوا اماكنهم للدفاع . وقد تدخل المراقبون الدوليون فعلا قبل ان يتطور الحادث .

وما ان وزع ابو المحاميد رجاله ، في امكنتهم وكان الظلام قد بدأ يرخي سدوله ، حتى انتحى جانباً بمحمد وقاسم العبد الله

السليمان وأمرهما بالرجوع الى قرية الجليبية لينالا قسطا من الراحة والعودة حين سماع الرصاص . ثم عاد الى رجاله .

وكانت السماء صاحية ، واخذت الضفادع تنق وهي تستنشي رائحة الربيع وشعر المقاومون بان الغد يحمل اليهم احداثاً جمة .

وهتف صوت حاد النبرة :

ـ الله يعطينا خير هذه الليلة .

فأجابه ابوه ، بصوت شبيه بصوته :

ـ ولك مرعي ، والله ان ما كنت ابن ابوك لاذبحك قبل ما يذبحك اليهود ..

فأجاب الابن :

ـ ولو يابا ، اذا ما كنت ابن أبي فسأقتل نفسي قبل ما أحد يقتلني .

وكان الشيخ أبو المحاميد خلال ذلك يقول :

ـ«اسمعوا يا اولاد .. جاءت اخبار بان اليهود يجمعون قوات ودبابات في بستان الخوري وكعوش وتليل وزبيدة وقد يهجمون علينا ويمكن الرافعة بدها تشتغل بالحفر غداً . ويمكن تشتغل الآن في الليل ، مش لازم نتركها تعمل . بكرة اذا جفت مياه الحولة

ما يبقاش فاصل بيننا وبينهم ، فيتسللوا علينا كل ليلة ، وتصير مقاومتهم صعبة .. ويستولوا على ارضنا ، ويذبحونا و .. »

وكان الرجال يشدون على بنادقهم الجديدة ويحشونها بالرصاص ويقاومون النعاس . وفي خلال الليل مرت عليهم ثلاث دوريات صديقة ، عادت آخرها مع صياح الديك ..

وفي عصر اليوم التالي كانت الرافعة قد عطلت ، وتصاعد اللهب والدخان في الافق الغربي ، ونشط مراقبو الهدنة بصورة لم يسبق لها مثيل .

★ ★ ★

فهـــرس

	الصفحة
حتى القطرة الاخيرة	٥
حفنة من تراب	١٥
يا أبنائي	٢٨
المسافر	٣٥
شجرة البطم	٤٤
نداء الوطن	٥٧
الدخان	٦٦
العدم	٧٩
الحقد	٨٨
رسالة غير مضمونة	٩٦
المجاهدون	١٠٦

مطابع دار الفكر بدمشق

☎ ١١٠٤١

١٩٦١/٥/٣٠

١/٢٠٠٠

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر بدمشق

مطابع دار الفكر بدمشق
☎ ١١٠٤١

٩٠ ق.س

وزارة الثقافة والارشاد القومي - مديرية التأليف والترجمة

حتى القطرة الاخيرة

فارس زرزور

السلة القصصية
٢

COLUMBIA UNIVERSITY
0026813416

956.9
Sy27
2

OCT 1 1964

956.9 - Sy27

2